31.27

بقلم

الدكتور : رضوان فضل الرحمن الشيخ

حوار مع ساخط

بونس

مكتبة
دار الزمان
للنشر و التوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

Marfat.com

حوار

مع

سائح

بقلم

د . رضوان فضل الرحمن الشيخ

مكتبة
دار الزمان
للنشر والتوزيع
المدينة المنورة

Marfat.com

ح مكتبة دار الزمان للنشر و التوزيع ، ١٤٢٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشيخ ، رضوان فضل الرحمن

حوار مع ساخط .- المدينة المنورة .

٢٠٠ ص ، ١٧ × ٢٤ س م

ردمك : X-٨-٩٣٦١-٩٩٦٠

١- الوعظ و الارشاد أ- العنوان

ديوي ٢١٣ ٢٣/ ١٣٧٨

رقم الإيداع : ٢٣/١٣٧٨٠

ردمـك : X-٨-٩٣٦١-٩٩٦٠

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الاولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

المدينة المنورة - شارع الستين - ص.ب ١٥٥٦
هاتف ٨٣٦٦٦٦٦ فاكس ٨٣٨٣٢٢٦
المملكة العربية السعودية

Medina Monawara - Al-Sittin Road - P.O. Box 1556
TEL 8366666 - FAX 8383226
Kingdom of Saudi Arabia

Marfat.com

الإهـــــــداء

إلى كل واعظ

يريـــــد أن يعــــظ نفســـه

وإلـــى كـــل تـــائـــب قـبــل فـــوات رمسه.

وإلى كل قائل: ألا متيقظ من سنة غفلته؟ ألا مستعد بزاد يصلح لنقلته؟

ألا متأهـــب لطول سفرته؟ ألا مقدم عملاً يصلح لحفـرته؟ وإلـى كل قائـــل:

أيها المفرط في أمره، وقد مضى أكثر عمـــره،ماذا بقي لـمن شاب، مـــن لــذات دهره،

كيف يحمل بعد الضعف وزراً على ظهـــره، وقد أشـــرقت لــــــمته

بشيبـــة إشـــراق النهـــار بفجـــره، وإلـــى كـــل قائـــل: يا غافلاً

عن عدم توفيقـــه، يا مسافراً خانه رفيقه، يا جاهلاً

ضاقت طريقه، يا حاملاً

وزراً لا يطيقه

إلى كل أخ حبيب، يطلب العودة إلى الله، إلى كل أخ حبيب، شغلته الدنيا، إلى كل من هو مثلي، كثير الذنوب، يرجو كرم الله، ويكرر، ويقول:

ذنوبـــي قطعت عني جوابـــي — *فما عذري غداً يوم الحســـاب*

فكم شاب ينـــادي وا شبابـــي — *وكم شيخ ينوح على الشبـــاب*

وكم من منطـــق أضحى فصيحـاً — *فلم يقدر على رد الـجـــواب*

وكم وجه صبيـــح صار فـحـماً — *يلقاه بأنـــــواع العـــذاب*

فيـــا حنان يا منان عـفـــواً — *فجـــد بالعتق من سوء العقـــاب*

(الأحسائي، ١٣٨٣هـ: ٢/١٩٤-١٩٥)

Marfat.com

حتى يقرأ عليه الشيخ آيات من القرآن، ويورد له طائفة من أحاديث التوبة وحقوق الله وحقوق العباد وما يؤدي بالمرء إلى المعصية ثم إلى الجريمة، ويبين له عوامل الوقاية منها.

ثم يرد حوار بينهما عن شروط التوبة وعدة الرحيل والإقبال على الله مع إيراد أقوال للسلف الصالح وقصة الرجل الدجال الذي كان يستخدم السحر للتأثير في نفوس الناس، فانتهى به الأمر إلى السجن بعد افتضاح أمره.

وكان راضي قد سمع من الرجلين التائبين قصة، تبين دور الدعاء في رد المصيبة ودفع الاذى، وهي عن فتاة تقع في يد عصابة ما رقة، فيكون دعاؤها بضراعة خاشعة إلى الله سبباً في نجاتها، والإيقاع بتلك العصابة.

ويستمر حديث الشيخ عبد التواب عن التوبة، وأن انشغال القلب بهذه الحياة الفانية هو السبب في الوقوع في المعاصي والبعد عن الله عز وجل.

وتنتهي القصة بلقاء راضي بعمه في المستشفى، وكان العم يحتضر، فأخذ راضي يذكره بالله ويحدثه عن التوبة، حتى فاضت روح العم، وهو يردد الشهادتين!!.

هذه الرحلة الشاقة المباركة بذل فيها الأخ الدكتور رضوان فضل الرحمن الشيخ جهداً طيباً في عرضها المنوَّر الموفق من خلال هذه الصفحات، إنه لم يقصد من هذا العرض إلى إبراز موهبة أدبية في كتابة القصة، لكن الأمر من وراء ذلك: هو الاهتمام بأمر الشباب والحرص على رد التائهين إلى الطريق

Marfat.com

التي تصلهم بالله عز وجل، وتباعد بينهم وبين الحيرة والاضطراب، كل ذلك بأسلوب شائق يشد القارئ إلى المتابعة عن رضى، فقدم عملاً، قوامه الدور التوجيهي الذي يضع من كاد يهلكهم اليأس من رحمة الله–على مائدة التوبة والإنابة، وتراه لا يني يوجه إلى وسائل العودة إلى واحة الرضا والفوز بعطاء الكريم المنان، ولم يبخل بحشد كثير مما يعين على تحقيق ذلك.

وإنه لعمل ضروري كثير من الشباب الحائر، الذي يبحث عن يد حانية، تأخذ بمجامع قلبه، وصوت صادق يطرق أذنيه، يحدثه عن أمر جدير بالهداية يبحث عن منارة تبدد ظلمات نفسه وتنير قلبه، التائه كما أنارت قلب (راضي) وأوصلته إلى بر السعادة.

ولو وجد العصاة والتوفيقُ من الله عالماً ربانياً حكيماً كالشيخ عبد التواب، لتقاطر التائبون إلى رحاب الله، ولتراجعت الجريمة، وفاض الخير بإذن الله، على أن التربية القويمة وتجفيف المستنقعات المؤذية: من الضرورة بمكان!!، جزى الله أخانا الدكتور رضوان خير الجزاء، وأثابه على ما قدم من الدواء الناجع للقلوب، والدلالة على الطريق التي سلكها الشيخ عبد التواب وما أثمرت من تلك اللبنة الصالحة في المجتمع، وذلك بردٍّ (ساخط) إلى أن يكون في زمرة التوابين المتطهرين، راضياً عن الله، منيباً إليه والله ولي التوفيق.

و

أ. د. محمد أديب الصالح

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مـــــقدمـــــة

الحمد لله رب العالمين غافر ذنب المذنبين، وقابل التوب من التائبين، جامع الناس ليوم الدين، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب مليء بالإيمان مكين، وبعد:

فإن مكونات العمل التربوي تتضـافر كلـها في التفـاعل مـع المتعلـم وفي تهيئة الأجواء التي تساعده على إعادة النظر في تشكيل سلوكه العقلي والنفسي والعملي وإفراز أنماط جديدة من السـلوك، وفي الوقـت نفسـه نجـد أن التربيـة تبين نسبة النجاح أو الفشل في المجهودات التربوية التي تبذل لدعم الخير في نفوس البشر حسب العقيـدة العامـة الـتي اشتقت منـها. وبـالنظر إلى العقيـدة الإسلامية نجد أن الإسلام يجعل (السعادة والخير) فصلين متكاملين، أحدهما في الحياة الدنيا، والآخر في الحياة الآخرة، ومن خلال مفهوم الخير والسـعادة تتشكل الأهداف التربوية ومخرجاتها من السلوك المطلوب، ويقوم بذلك البنـاء التربوي، وتتشكل شخصيات المتعلمين، وبذلك يتحقق الأمر الإلهي، إذ علـى الفرد أن يبتغي فيما آتاه الله الدار الآخرة، ولا ينسى نصيبه مـن الدنيـا، وأن يحسن كما أحسن الله إليه، وأن لا يبغي الفساد في الأرض، لأن الله لا يحـب المفسدين (الكيلاني، ١٤٠٧هـ: ١٨-٢١). والفسـاد في الأرض أساسـه مخالفـة أمر الله، وهذه المخالفة هي من باب كل الذنوب. والمخالفـة تحتـاج إلى دعـوة

Marfat.com

للعـودة إلى الله وفـق منـهج الله، والمنطلـق مـن ادعُ إلى سـبيل ربـك بالحكمـة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن، ذلك أن كل عاقل يدرك أن القيم الروحية والمعاني الأخلاقية لا يمكـن انتزاعـها مـن ميـادين المعرفـة الإنسـانية والبحث والتجربة، لذلك فلا بد من تطوير مفهوم علم أوسع، علم مزود بقـوى ووسائل أكبر، علم يستطيع دراسة القيم، ويعرف كيف يغرسـها في الإنسـان، ومثل هذا العلم لا بد أن يشمل ضمن اهتماماتـه كـل مـا يحتـوي عليـه الديـن (الكيلاني، ١٤٠٧هـ: ٥٦). لأنه إذا كانت الغلبة لداعي الهوى فتكن النتيجة سقوط الجانب المتعلـق بـالدين، فيستسـلم الفـرد للشـيطان وجنـده، فيقودونـه حيث شـاءوا (ابـن القيـم، د.ت: ١٦). وبذلـك يرتكـب الفـرد الذنـوب الـتي تحتاج إلى الاستغفار، وهذه الذنوب تصبـح عـثرات في طريـق انتصـار الإنسـان على نفسه، عثرات في طريق رفع البلاء، وبذلك تتـم الهلكـة كمـا قـال سـيدنا النعمان بن بشير رضي الله عنه: إن الهلكة كلَّ الهلكة أن تعمـل السـيئات في أيام البلاء. وبذلك نجـد أن الزلـة الـتي تعيشـها الأمـة المسـلمة بسـبب تسـلط الكافرين على المسلمين ما هي إلا بسبب ذنوبهم، لأن الذنوب هي سبب نزول البلاء ولذلك قال ابن العسَّال–رحمه الله–عند سقوط أشبيلية بيد النصارى:

لـــولا ذنوبُ المسلمين وأنهـــم ركبوا الكبائر ما لهنَّ خفـــــاءُ
ما كان يُنْصَرُ للنصارى فـــارسٌ أبداً عليهم، فالـذنوبُ الـــــداءُ

وبذلك نجـد أنـه إذا كـانت الذنـوب هـي الـداء، فـإن الـدواء هـو التوبـة والاستغفار، ورحم الله التابعي الجليل قتادة السَّدوسي حيث قال: ألا أدلُّكـم علـى

Marfat.com

دائكم ودوائكم، ألا إن داءكم الذنوب، ودواءكم الاستغفار، ولذلك قيل: داو بمراهم التوبة جراح دينك فَبُرْؤُها أسرع من طرفة العين (عوامة، ١٤١٣هـ: ١٤٠).

وبذلك يتضح أن جراح الفرد وجراح الأمة شفاؤها كامن في الاستغفار والتوبة، وأن صلاح الأمة وانتصارها مرتبط بالتوبة، لأنها بانية الحصن الحصين في نفوس المسلمين، فالفرد الذي هزمه الشيطان علاجه التوبة، والفرد الذي هزمه الهوى علاجه بالتوبة، كما أن الأمة المهزومة داخلياً بكثرة الفساد وانتهاك حرمات الله في داخل البلاد-علاجها التوبة، وكذلك الأمة المهزومة والمقهورة من الخارج بقوة أخرى من قوى أعدائها-علاجها التوبة، فالتوبة إكسير القلوب، لأنها الدالة إلى طريق علام الغيوب، والقائدة إلى كل ما يكون عنده مرغوب، وهي المنقذة في اليوم الذي كل عمل صغير أو كبير محسوب. وإنّ ما كتبته في هذه الصفحات ما هو إلا علم من علوم أفراد أدركوا الخير وطريقه، فدعوْ إليه، وطالبوا كل مذنب أن يأخذ منه ليؤوب، فأخذت بنصيحتهم لأني فرد كثير الذنوب، فسبكت عباراتهم في قالب الحوار، لأن التوبة تحمل حوار النفس الأمارة والنفس اللوامة وبقية طبقات النفوس، فيكون تبادل الأثر بين النفس والعقل، فيتأثر الجسد، فيبتعد عن مواطن الهلاك، وقد كان هذا الحوار مقدماً لأخوة سجنوا نفسهم في سجن الشهوات، فأخذوا عقابهم في الدنيا قبل الممات، ولعله يكون لهم منجياً من عقاب ما بعد الممات، فيكون السجن سعادة لهم، لأنه قادهم إلى الخير في يوم لا يستطيع الإنسان العمل.

فكانت خواطر هذا العمل من خلال ما قدمه لي الاخوة الأعزاء في سجن المدينة المنورة الذي أطلق على من بداخله نزلاء، وجعل السجن مكاناً للعلاج،

Marfat.com

فأطلق على الزنزانة عنبر، فأصبح مستشفى به نزلاء يسكنون عنابر، ويقدم لهم فرص العلاج من خلال التجربة الرائدة التي طبقها سعادة مدير سجن المدينة المنورة الذي تقاعد بعد أن خدمات كثيرة وقام بالمسؤولية التي كلف بها خير قيام، وهو الأخ الحبيب العقيد زايد المجرشي، الذي شارك في تطبيق تجربة إخراج السجين للعمل في السجن وفي خارج السجن، لإعطائه الخبرة المناسبة التي تقوده لطريق الكسب الحلال، وغيرها من الأمور التي تحتاج إلى صفحات للكتابة عنها وعن كيفية معالجة عدد من المشكلات التي يحتاجها السجين والتي منها دعوة أمثالي من المذنبين وغيري من العلماء والمفكرين للمشاركة في تقديم بعض اللقاءات التي كانت حصيلتها هذا العمل، فلهم مني الشكر والتقدير، لإتاحة هذه الفرصة لمحاسبة النفس والاطلاع على ما كتب القوم الأفاضل السابقون في هذا الباب، وأسأله تعالى أن يكون عملا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعل ما كتبته شاهداً لي لا عليّ يوم العرض على الله، فما كتبته من خير فبتوفيق من الله، وما يظهر من قصور فهو من قلة العلم والجهل، ورحم الله كل فرد نبهني لخطأ في الفكرة أو الكتابة، يكون كمال فضله بأن يرسل ما يجد من أخطاء على العنوان الموجود في آخر هذه الصفحة وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه

د/ رضوان فضل الرحمن الشيخ

المدينة المنورة

ص.ب: ٢٦٢٤

Marfat.com

مـــناجاة تـــائب

رحم الله الشاعر الذي قال:

يـا من يرى ما في الضمير ويسمـــع ... أنت المعد لكل ما يتوقـــــــع
يا من يرجى للشـــدائـد كلهـــا ... يا من إليه المشتكى والـمفـــزع
يا من خزائن رزقه فـي قـول كـن ... أمنن فإن الخير عندك أجمـــع
مالي سوى فقري إلـيك وسـيلـــة ... فبالافتقار إليك فقري أدفـــع
ما لي سوى قرعي لبـابـك حيلـة ... فلئن رددت فأي باب أقــــرع
ومن الذي أدعو وأهتف باسمـــه ... إن كان فضلك عن فقيرك يمنـــع
إن كان لا يرجوك إلا محســـن ... فالمذنب العاصي إلى من يرجـــع
حاشا لجودك أن تُقَنِّطَ عـاصـيـاً ... فالفضل أجزل والمواهب أوســـع

يا من إليك بسطت كف رجائـــي ... ورفعت آمالي بصدق دعائـــــي
يا من ألوذ بباب عزك دائمـــاً ... أبداً مع السرَّاء والضـــــــراء
سلطان قدسك عز شأنك حاكـــم ... في كل أرض بل وكل سمـــــاء
غوثاه إني مستجير ضـــــارع ... وبعلة الأوزار أكمن دائـــــي
اغفر بفضلك ما جنيت وداونـــي ... بعناية يا أرحم الرحمــــاء
أبكي بكاء الخائف الوجل الـــذي ... سئم الوجود وهل يفيد بكائـــي
إلهي يا إله الكون إنـــــي ... أتيتك راجياً فاقبل دعائـــي
لجأت إليك يا ربي لأنـــــي ... وجدتك خير من يقبل دعائـــي

Marfat.com

إقـــرار ونـــدم

رحم الله الشاعر الذي قال:

إلهـي لا تعـذبني فـإنـي مقر بالـذي قـد كان منـي
وما لـي حيلـة إلا رجـائـي وعفوك إن عفـوت وحسن ظني
فكـم من زلـة لـي فـي البـرايا وأنت علـيّ ذو فـضل ومَـن
إذا فكـرت فـي نـدمي عليهـا عضضت أناملـي وقرعت سنـي
يظـن الـنـاس فـيَّ خيـراً وإني لشر الناس إن لم تعـف عني
أجن بزهـرة الدنـيا جنـونـاً وأفني العمـر فـيها بالتمنـي
وبين يدي محـتـبس ثـقـيـل كـأنـي قـد دعيت لـه كأنـي

❂❂❂❂❂❂❂❂❂❂❂❂❂❂

قال الأصمعي إنه شاهد سليل بيت النبوة زين العابدين بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول:

يـا مَـن يجيبُ دُعا المضطرِ في الظُّلَمِ يـا كاشـفَ الضرِّ والـبَلْوى معَ السَّقَمِ
قد نامَ وفْدُكَ حولَ البيتِ وانتبهـوا وأنتَ يا حيُّ يا قيـومُ لم تَـنَمِ
أدعوك ربي حزيناً هائماً قلـقـاً فارحم بكائي يارب البيت والحـرم
إن كان جُودُكَ لا يرجوه ذو سفـهٍ فمن يجودُ على العاصينَ بالكـرمِ؟

ثم بكى بكاء شديداً وأنشد يقول:

ألا أيها المقصودُ في كل حاجـةٍ شكوتُ إليك الضرَّ فارحم شكايتـي
ألا يا رجائي أنت تكشف كُربـتي فَهَبْ لي ذنوبي كلَّها واقضِ حاجتـي
أتيتُ بأعـمال قِـباحٍ رديئـةٍ وما في الـورى عبدٌ جـَنَى كجنايتي
أتحرقني بالنار يا غايةَ المـنَـى فأيـن رجائي؟ ثم أين مخافـتي؟

Marfat.com

أمـــــل ورجـــــاء

رَبّـــاه إنــــي غـــارقٌ بـذنوبـــــــي	وجميل عفوك غاية المطلـــــوب
ربّاه ما لي حيلة إلا الـــــرجـــــا	في كشف ضري وانجلاء كروبـــــي
وأنا الذليل وأنت أرحـم راحـــــم	ورضاك عني غافر لذنوبـــــي
يا عدتي في النائبات وعـمدتـــــي	في الحادثات وفي السقام طبيبـــي
قد جاءك الأبرار فــي حسناتهـــم	وأتيت بابك مثقلاً بـــذنـــوبــــي
مهما تعاظمت الذنوب وأظلـــمـــت	فالله عند النائـــبات مجيبـــي

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

مولاي ضاقت بي الأرجاء خذ بيـدي	مالي سواك لكشف الضر يا سنـــدي
حسبي الوقوف بباب الذل منكســـرا	أمرغ الخد في الأعتاب لم أحيـــدِ
مولاي جُد بالرضى والعفو عما مضـــى	لقد أتيت ذنوباً أتلفت جســـدي
ساء المصير إذا لم تنجني يا أملـــيّ	طال المدى فأغثني منك بالمـــدد
دأبي التوسل حاشـا أن تخيبنـــي	عَلي أرى لمحة أشفي بها كبـــدي
لم يبق لي جَلَدٌ يا رب ترحمنـــي	أنا المسيء وأنت المحسن الأبـــدي
يا عالماً بالخفايا إننـــي تلـــف	رحماك يا ملجأ الراجين خذ بيـــدي

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

منا الرجاء ومنك العفو والجـــود	منا الدعاء ومنك الفضل ممـــدود
منك العطايا بلا حد ولا عـــدد	وجهدنا لأداء الشكر محـــدود
يسبح البحر بالأمواج خالـــقـــه	بحمده لك إعظام وتمجـــيـــد
تسبيحة الروض عطرٌ في خمائلـــه	تسري وتسبيحة العصفور تـغـريـد
من طينة بشرا من حبة شجـــرا	لولاك في غرسه ما أورق العـــود
جليتها صوراً أبديتها ثمــــرا	لنا بقدرتك العليا مـــواعيـــد

Marfat.com

أخذ الهدوء يسود جنبات السجن، وبدأت الأصوات تصبح خافتة، وجاوزت الساعة الثانية عشرة (أي بعد منتصف الليل)، وظل (ساخط) سهراناً حيران في أول ليلة يقضيها في السجن، ولأول مرة في حياته، وأخذ يفكر كيف يتخلص أو يهرب من السجن؟ إنه عالمٌ لا يطاق، حتى فقد حريته، نعم قد كان حراً يفعل ما يريد، واليوم تعطِّل حركتَه قضبانُ الحديد، وقطع تفكيَره صوتٌ خافت، ينطلق من ظلمة السجن وهو يقول: يارب، قد قلت وقولك الحق: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّـهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) (سورة الزمر: ٥٣-٥٥).

اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعاً، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، اللهم اغفر لي ذنبي كله، دِقَّه وجلَّه، علانيته وسرَّه، أوله وآخره، اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدّي، خطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت (ابن تيمية، ١٤١٤هـ: ٤٠).

Marfat.com

وصمت الصوت فجأة، ثم سُمِعَ صوت بكاءٍ وأنين، فأخذ (ساخط) يشتم ويقول: أريد أن أنام، وهذا البكاء مقلق، لا أريد الحزن والبكاء، أريد الحرية والسعادة لا الشقاء والكآبة، وأخذ يصرخ ويقول: أنا قلق أنا قلق، وأخذ يضرب بكلتي يديه الأبواب إلى أن أقبل السجان، وقال له: ما بالك ساخط

–قال ساخط: وما أدراك عن إسمي؟ هل تعرف أسماء جميع المساجين؟

–قال السجان: تشرفت بمعرفة اسمك، فإن لك من اسمك نصيب، ماذا تريد؟

–قال ساخط: أريد أن أنام، ولكن صوت البكاء يقلقني!

–قال السجان: أتريد أن أمنع الشيخ عبد التواب بركة السجن من البكاء؟

–قال ساخط: عبد التواب أو أي اسم لا يعنيني! أريد النوم.

–قال السجان: إن الشيخ عبد التواب هو أنيس كل سجين ورفيق كل مسكين.

–قال ساخط: أقول لك...، وفجأة عاد صوت الشيخ يقول:

ربِّ إلهي دموع العين جارية   والقلب تحْرقه في أضلعي النار
إن ضل قلبي فقلبي أنت تعرفه   أو كان ذنبي كبير أنت غفار
يا غافر الذّنب أنت غفار   يا مسبل الستر أنت ستار
نادى المنادون عند حيرتهم   من أنت هاديه كيف يحتار

Marfat.com

-قال ساخط: أريد أن تنقلني إلى مكان آخر، فهذا الرجل يذكرني بالموت، وأنا أريد الحياة، هذا الرجل يذكرني بالسجن، وأنا أريد الحرية، هذا الرجل يذكرني بالشقاء الدائم، وأنا أريد السعادة الأبدية. قاطعه السجان، وقال له: أصمت، إنك لم تعرف الشيخ، غداً سوف تشاهده، وتأنس به.

-قال ساخط: لا أريد أن أراه، ولا أريد أن آنس به، أريد أن يصمت ويكف عن تشاؤمه.

-قال السجان: لن أعاقبك على وقاحتك، لأن الشيخ عبد التواب جعلني أعرف معنى الصبر وحلاوته.

خرج السجان، وبقي (ساخط) وهو في أشد حالات الهيجان، سجن، وتذكير بالموت والحزن، شيء رهيب، وليل الشتاء طويل، وأخذ فترة وهو يضرب بكلتي يديه الأرض وبرجليه إلى أن أنهكه التعب، واضطرَّ إلى النوم من شدة الإرهاق والنصب، ولم يستيقظ إلاَّ على أشعة الشمس وهي تدخل بهدوء إلى زنزانة السجن، فقام وصوت الشيخ يردد ويقول: (وانلي، ١٤١٠هـ: ١١٨).

أستغفر الله ربي في مناجاتي ... فهو العليم بآثامي وزلاّتي

وهو الغفورُ وَلي في عفوه طمعُ ... إذا بسطت لهُ كفَّ الضراعات

ما لي سوى بابه بابٌ ألوذ به ... إن ناء ظهري بأوزار الخطيئات

سبحانه وسعت ساحات رحمته ... أهلَ الأراضي وسكانَ لسماواتِ

أدعوك يا ربِّ والإيمانُ يدفعني ... وأستغيث بأهدى الاستغاثات

Marfat.com

أدعوك يا ربٌ لا أرضى سواك وقد ... أغنيت عبدك عن ذلّ الشفاعات

إني أناجيك والقرآن وجّهني ... إليك والنفسُ لم تقض اللُّبانـاتِ

حقق بعفوك ما بالنفس من أملٍ ... وكن معيني على إدراك غاياتي

لقد دعوتكَ أرجو منك مغفرةً ... وما نؤمّلُ مرهونٌ لـميقـات

أخذ (ساخط) يفتح عينيه ببطء، وقد استقرّ في ذهنه آخر ما قال له الشيخ:

حقق بعفوك ما بالنفس من أملٍ ... وكن معيني على إدراك غاياتي

لقد دعوتك أرجو منك مغفـرةً ... ومـا نؤمّل مرهونٌ لـميقـات

وأخذ يردد ويكرر هذه الأبيات، وأخذت الذكريات تنساب في مخيّلته، وهو ينظر إلى صورة والده في جوف الليل، وهو يمسك لحيته، ويكرر هذه القصيدة، ويأخذ بلحيته، ويكرر البيتين الأخيرين، نعم، إنّ هذه الأبيات سمعها عندما كان عمره أربعة عشر عاماً قبل الحادث الذي قضى على حياة والده وشتت الأسرة وجعله مشرداً، يحاول أن يؤمّن لقمة العيش من خلال جميع السبل، وقد كان نهاية السبل سلوك طريق التجارة الحرام، الطريق السريع للثراء، الذي لم يدم طويلاً، فقد صودر منه كل شيء، وأدخل السجن! لقطات سريعة من الماضي، وصورة والده ظلت عالقة في ذهنه، وخفت حدة النقمة على الشيخ عبد التواب، وكان يود أن يراه ويشاهده هل وجهه مثل وجه أبيه؟ وأخذ يردد مرة ثانية:

حقق بعفوك ما بالنفس من أملٍ ... وكن معيني على إدراك غاياتي

لقد دعوتك أرجو منك مغفـرةً ... وما نـؤمّل مـرهونٌ لـميقـات

Marfat.com

فقد غابت هذه الكلمات عن مخيلته قرابة عشرين عاماً منذ وفاة ذلك الرجل الطيب، صاحب القلب الكبير، صاحب الابتسامة المشرقة، واليد الحانية، الذي كان أباه وأمه وكل أهله في آن واحد، وأخذ يقول في نفسه: قد كان نعم الأب بعد وفاة الأم عندما كان عمري خمسة أعوام يا إلهي! خمسة أعوام في كنف الوالدين، وتسعة أعوام في رعاية أعظم أب، وعشرون عاماً معظمها في كرب وهم وتنقُّل من أجل حياة سعيدة، أي لدي كل ما أريد، نعمْ، إن السعادة أن يكون لديك المال والحرية، وأن تفعل ما تشاء!

خرج (ساخط) وكل همه أن يرى وجه الشيخ (عبد التواب) هل هو مثل أبيه؟ أم يختلف؟ وقبل تناول الإفطار، خرج، وأخذ يتأمل في الزنزانة التي أشار إليها السجان، فوجد شيخاً أكبر من أبيه سناً، وأكثر بياضاً للحيته، وجسمه مقارب لجسم أبيه، أخذ ينظر، إليه والدموع بدأت تنساب من عينيه، فقد تذكر أباه وأيام الطفولة، مسح دموعه بكم ثوبه، وانطلق إلى الشيخ قائلاً: السلام عليك ياشيخ عبد التواب! تبسم الشيخ! وقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا بني! كيف عرفت اسمي؟ فلم أرك قبل اليوم.

-قال (ساخط): نعم، إني لم أدخل السجن إلا يوم أمس.

-قال الشيخ عبد التواب: مرحباً بك، أرجو الله أن يخرجك من سجن نفسك.

-قال (ساخط): ماذا تقول؟

-قال الشيخ مرة ثانية: أرجو الله أن يخرجك من سجن نفسك.

-قال (ساخط): أنا لم أسجن نفسي، بل هم الذين سجنوني.

Marfat.com

-قال الشيخ: أنت سجنت نفسك أولا، ثم هم سجنوك.

-قال (ساخط): كيف ذلك؟

-قال الشيخ: لا يدخل الفرد السجن إلا لأنه قيد نفسه بقيد الذنوب.

-قال ساخط: ياشيخ، لا أريد مواعظ، لأنك أنت الذي سجنت نفسك في سجن الدموع والبكاء والاكتئاب، الناس في غِناء وأنت في دعاء، الناس في ضحك وأنت في بكاء، الناس في سعادة وأنت في شقاء.

-قال الشيخ: حسبك يا بني، لا تتكلم فيما لا تعرف، فإن السعادة التي أنا فيها لا يعلمها إلا الله، وإن الدموع التي أسكبها تغسل الخطايا التي ارتكبتها والذنوب التي اقترفتها، وأخذ الشيخ يردد ويقول: (وانلي، ١٤١٠هـ: ١٥١).

بذكرك يا مولى الورى نتنعم ... وقد خاب قوم عن سبيلك قد عموا

شهدنا يقينا أن علمك واسع ... وأنت ترى ما في القلوب وتعلم

إلهي تحملنا ذنوباً عظيمة ... أسأنا وقصرنا وجودك أعظم

سترنا معاصينا عن الخلق غفلة ... وأنت تراها ثم تعفو وترحم

إلهي فجد واصفح وأصلح قلوبنا ... فأنت الذي تولي الجميل وتكرم

ألست الذي قربت قوماً فوافقوا ... ووفقتهم حتى أنابوا وأسلموا

وقلت استقيموا منة وتكرما ... وأنت الذي قومتهم فتقوموا

لهم في الدُّجَى أنسٌ بذكرك دائماً ... قهم في الليل ساجدون وقوَّم

نظرت إليهم نظرة بتَعَطُّفٍ ... فعاشوا بها والخَلْقُ سكرى وئوَّم

لك الحمد عاملنا بما أنت أهله ... وسامح وسلّمنا فأنت المسلّم

Marfat.com

ظل (ساخط) ينظر إلى الشيخ نظرة محبة، تشوبها غضب، نظرة حنان، تشوبها كراهية، لم يستطع أن يحدد اتجاهه نحو هذا الرجل العجيب، ويزداد عجبه وهو ينظر إلى زملائه المساجين وهم يمرون بالشيخ عبد التواب، وكل منهم يطلب منه الدعاء، وأن يكلفه بأي خدمة يقوم بها، ما هذا الحب لهذا الرجل؟ ما هذا الرضا من الخلق على هذا المخلوق؟ وبمجرد مرور هذه الخاطرة في نفسه أخذ يضحك مثل المجنون! الرضا! الرضا! الرضا! فقد نسي الرضا والقناعة منذ ذلك اليوم، عندما قام رئيس العصابة التي ينتمي إليها بضربه والاستهزاء به، عندما كان عمره أقل من عشرين سنة وهو يذكر ذلك اليوم جيداً، أخذ يفكر ويقول لنفسه: منذ وفاة أبي احتضنني عمي الذي كان يكفلني لمدة أربع سنوات، لم يمكث في مكان أكثر من عام، فهو ينتقل من بلد، إلى بلد وفجأة أخبرني أن مال أبي قد نفد، وأنه مضطر للسفر خارج البلاد هو وأسرته، ودون سابق إنذار وجدت عمي قد ترك الدار سريعاً هو وأسرته، ثم أخَذَتْ صورة صاحب الدار تظهر، وإذا به يقول: أين أجرة العام المنصرم؟ أين والدك؟ قلت له: والدي؟ والدي؟ قد انتقل إلى مكان آخر.

-قال الرجل: ومتى يأتي.

-قلت له: منذ سنين وأنا أسمع هذا الكلام، وأنا في انتظار أبي، قال الرجل: كف عن هذا الهراء، ودفع الباب، ودخل، وكانت المفاجأة أن البيت خالٍ تماماً، لا يوجد فيه إلا ملابسي فقط، أمسكني الرجل من رقبتي، وأخذ

Marfat.com

يضغط عليها، ويقول أين أبواك؟ كدت أموت من شدة قبضته، وأخذت أخبره بالحادث الذي جرى لأبي ودموع عيني تنساب من محاجرها،ذ وأشفق الرجل عليّ، وأخذ يقول: حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله ونعم الوكيل! طارت الأجرة! طارت الأجرة! دفعني خارج الدار حتى لم أتمكن من أخذ ما بقي من ملابسي، وأصبحت في الشارع لا أعرف ماذا أصنع.

صور سريعة أخذت تمر، وقطع هذه الصورة السعال الحاد الذي أخذ يصدر من قبل الشيخ (عبد التواب)، وإذا بالشيخ يقول له: اعطني يا بني قليلا من الماء من فضلك. قام (ساخط) وأحضر الماء للشيخ، وأخذ الشيخ يشرب الماء ويقول: الحمد لله الذي سقاني وأرواني من غير حول مني ولا قوة، أخذ (ساخط) يتأمل هذا الرجل الذي ذكّره بوالده الطيب وأيام الخير، وذكّره بالله، فهو في كل حركة مع هذا الرجل يتذكر والده، وأخذ يتذكر والده وهو في ذلك المجلس مع بعض أصدقائه وهو يستمع لأحد المنشدين ينشد بصوت جميل:

يا رب ما لي غير لطفك ملجأ ولعلني عن بابه لا أطرد

وحاول جاهداً أن يتذكر بقية القصيدة، فلم يستطع، فأقبل بوجهه إلى الشيخ (عبد التواب) وهو مستغرق في التسبيح والتهليل، وقال له: (ياشيخ عبد التواب) قد سمعتك تنشد بعض القصائد التي كان أبي يرحمه الله يرددها، فهل تحفظ كثيراً من القصائد؟

-قال الشيخ: منذ سنوات وأنا لا أحفظ أي شيء سوى القرآن الكريم.

Marfat.com

-قال (ساخط): والأشعار التي ترددها؟

-قال الشيخ: منذ زمن بعيد كنت أحفظ، وأنا الآن أكرر الماضي المفيد فقط، وأحاول أن أعيش السعادة التامة.

-قال (ساخط): السعادة التامة؟ ماذا تقصد؟

الشيخ: أقصد أن تكون مع الله.

-قال (ساخط) : ما ذا تقصد أن تكون مع الله فتكون سعيداً.

-قال الشيخ: عند ما تكون مع الله تحصل على كل السعادة الدنيوية والأخروية، فتحب الله، وتحب في الله، وتحب ما يعين على طاعة الله، وتجتنب معصية الله، وما يبغضه الله، وما تقطع محبته عن محبة الله أو تنقصها، وتبتعد تماماً عن الشرك، فهو أبغض الأشياء إلى الله، تحصل على السعادة التامة (ابن القيم، ١٣٨١هـ: ٢/١٣٦).

-قال (ساخط) محدثاً نفسه: لا أعلم ما ذا حدث لي، هل هذا الرجل ساحر أم؟ وقطع تفكيره مرة أخرى صوت الشيخ وهو يقول: هل فهمت طريق السعادة ياولدي؟ أثّرت كلمة (ياولدي) في نفس (ساخط)، وأخذ يقول لنفسه بصوت مسموع: ماذا صنع هذا الرجل في عقلي؟ هل هو ساحر؟ ماذا حدث لقلبي؟ لقد حركت كلماته وجداني وقلبي! ماذا حدث له؟ قاطعه الشيخ وهو يقول له: ياولدي قلبك بخير إذا أصلحته.

-قال (ساخط): هل أنت طبيب للقلوب ياشيخ (عبد التواب).

Marfat.com

-قال الشيخ : طبيب القلوب هو التـواب سبحانه الـذي أخـبرنا عـن يـوم القيامة بقوله (يَـوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ }٨٨ {إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّـهَ بِقَلْـبٍ سَلِيمٍ) (سورة الشعراء: ٨٨-٨٩). القلب السليم مثل قلوب الأنبيـاء والرسـل صلـوات الله عليهم أجمعين، ألم تسمع إلى أبي الأنبيـاء صـاحب القلـب السـليم؟ وهـو يقول عن خالقه سبحانه وتعالى: (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَـعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) (سورة الشعراء: ٧٨-٨٢). وانقطع صوت الشـيخ وأخذ يكرر: (وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)، (وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ). وأخذت دموع الشيخ تنساب، وبدنـه يـهتز مـن البكاء. وأخذ (ساخط) ينظر إليه وهوَ في عجب!«أول أيام السجن عجيبـة! لم أكن أتصور أن السـجن فيـه أنـاس مثـل هـذا الرجـل العجيـب! فقـد شـعرت بمشاعر وأحاسيس غريبة لا أعلم ما هي!

-قال الشيخ: إني آسف يا بني، لأني كلما تذكرت خطيئتي، ندمت وطلبت من الغفار أن يغفر خطيئتي يـوم الديـن، وسـوف أكمـل لـك الحديـث السابق، فأنا لست طبيب قلوب، ولكن عرفت أن القلوب متعددة منها:

القلب السليم: وهو الذي سلم من أن يكون فيه شرك، فخلصـت عبوديتـه لله تعالى، فأصبحت إرادتـه لله ومحبتـه لله وتوكلـه علـى الله وإنابتـه إلى الله وإخباته وخشيته لله ورجاؤه بالله، أي أخلص عمله لله: فإن أحبَّ، أحبَّ في

813915

Marfat.com

الله، وإن أبغض، أبغض في الله، وإن أعطى: أعطى لله، وإن منع: منع لله، فيسلم من الانقياد لبشر إلا لرسول الله ﷺ، فيعقد مع قلبه عقداً محكماً على الاقتداء به ﷺ.

والقلب الثاني ياولدي ضد هذا، وهو القلب الميت الذي لا حياة به. القلب الميت: لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره وبما يحب ويرضى، بل هو واقف مع شهواته ولذاته، فهو متعبَّد لغير الله، إن أحبَّ، أحب لهواه، وإن أبغض، أبغض لهواه، وإن أعطى، أعطى لهواه، وإن منع، منع لهواه، فهواه آثر عنده وأحبُّ إليه من رضا مولاه، فالهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهل سائقه، والغفلة مركبه، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور، فلا يستجيب لناصح، ويتبع كل شيطان مريد، الدنيا تسخطه وترضيه، والهوى يصمه عما سوى الباطل ويعميه، فمخالطة صاحب هذا القلب سقمٌ، ومعاشرته سمٌّ، ومجالسته هلاك.

أما القلب الثالث، فهو قلب له حياة، وبه علة، وله مادتان تمده، هذه مرة وهذه أخرى.

القلب الرابع: فيه من محبة الله تعالى والإيمان به والإخلاص له، والتوكل عليه ما هو مادة حياته. وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها، والحسد والكبر والعجب، وحب العلو، والفساد في الأرض بالرياسة ما هو مادة هلاكه وعطبه، وهو ممتحن بين داعيين: داع يدعوه إلى

Marfat.com

الله ورسوله والدار الآخرة، وداع يدعوه إلى العاجلة. وهو يجيب أقربها منه باباً، وأدناهما إليه جواراً.

وبذلك تجد ياولدي أن القلب الأول: حيٌّ مخبتٌ ليِّنٌ واعٍ، والقلب الثاني يابسٌ ميِّتٌ، والقلب الثالث: مريض، فإما إلى السلامة أدنى وإما إلى العطب أدنى (ابن القيم، ١٣٨١هـ: ١٣-١٥).

-(ساخط): ياشيخ، قد أنسيتني السؤال السابق عن الشعر.

-الشيخ: قلت لك لا أحفظ إلا بعض القديم المفيد.

-(ساخط): قد تذكرت أبي وهو يستمع إلى قول المنشد:

يا رب مالي غير لطفك ملجأٌ ولعلني عن بابه لا أطـرَد

الشيخ: رحم الله أباك! فقدْ أحسن اختيار ما يسمع هذه القصيدة، ياولدي هي للشاعر (خليل اليازجي) وهي كما قلت تبدأ بقول الشاعر: (وانلي، ١٤١٠هـ: ١٦٩).

يا ربِّ ما لي غيرُ لطفك ملجـأُ ولعلني عن بابه لا أطـرَدُ
يا ربِّ هب لي توبةً أقضي بهـا دَيْناً عليَّ به جلالك يشهَـدُ
أنت الخبير بحال عبدك إنـه بسلاسل الوزْر الثقيل مقيَّـدُ
أسفاً على عمري الذي ضيَّعتـهُ تحت الذنوب وأنت فوقي ترصُدُ
يا ربِّ قد ثَقُلَتْ عليَّ كبائـرُ بإزاء عينيْ لم تزل تتـردَّدُ
يا ربِّ إن أبعدت عنك فإن لـي طمعاً برحمتك التي لا تُبعِـدُ
أنت المجيبُ لكلِّ داعٍ يلتجـي أنت المجيرُ لكلِّ من يستنجـدُ
من أيِّ بحرٍ غير بحرك نستقي ولأيِّ باب غير بابك نقصِـدُ؟

Marfat.com

وأخذ الشيخ عبد التواب بصوته الرخيم يكرر ويقول:

من أي بحر غير بحرك نستقـــــــي ولأي بابٍ غير بابك نقصد

يا رب: من أي بحر غير بحرك نستقي ولأي بابٍ غير بابك نقصد

يا رب: من أي بحرٍ غير بحرك نستقي ولأي باب غير بابك نقصد

ثم أخذ الشيخ عبد التواب يقول: ياولدي قد أجبتك عن الشعر الذي أشغلك، وأرجو أن يكون فيه إحياء لقلبي وقلبك، فالقلب كما قيل: هو حصن، والشيطان عدوّ، يريد أن يدخل الحصن فيتملكه ويستولي عليه، وللحفاظ على الحصن ياولدي من سيطرة العدو يجب إقامة الحرس واليقظة وسد مداخل العدو. لذلك ياولدي فإن حماية القلب من وسواس الشيطان واجبة، ولا تستطيع أن تقهر العدو إلا بمعرفة أسلحته ومداخله، ومن أعظم الأبواب والمداخل التي يدخل منها عدوي وعدوك باب الغضب وباب الشهوة وباب الحسد وباب الحرص، كما أن من أبوابه التعصب للمذاهب والأهواء والحقد على الخصوم، وسوء الظن بالمسلمين. فأغلق بالعلم والعمل هذه الأبواب، لكي تمنع استقرار العدو في حصنك الحصين، لذلك أملأ قلبك بالعلم الشرعي الذي يدفع سلطان الشيطان عليك، وكرر ياولدي دعاء محمد بن واسع-رحمه الله-الذي كان يقول بعد صلاة الصبح: اللهم إنك سلطت علينا عدوّا، بصيرا بعيوبنا، يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم، اللهم فآيسه منا

Marfat.com

كما آيسته من رحمتك! وقنِّطه منا كما قنَّطته من عفـوك، وبـاعد بيننـا وبينـه كما باعدت بينه وبين رحمتك إنك على كل شيء قدير.

وخلاصة القول ياولدي: أن كل عضـو مـن أعضـاء البـدن خُلِـقَ لفعـل خاص، وإنما مرضه أن يتعذر عليه فعله الـذي خُلـق لـه حتـى لا يصـدر منـه أصلا، أو يصدر منه مع نوع من الاضطـراب، وكمـا قيـل: إن مـرض اليـد أن يتعذر عليها البطش، ومرض العين أن يتعـذر عليـها الإبصـار، وكذلـك مـرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الـذي خُلـق لأجلـه، وهـو العلـم والحكمـة والمعرفة وحب الله تعالى وعبادة الله تعالى والتلذذ بذكر الله تعالى، وإيثار ذلك على كل شهوة، وبذلك تدرك أن من عرف الله تعالى أحبه، وعلامة المحبة أن لا يؤثـر عليه شيء من المحبوبات، وأن من عنده شيء أحب إليه مـن الله فقلبـه مريـض، ورحم الله إبراهيم بن أدهم فقد قال-رحمه الله-عندما سئل عن سبب موت القلوب فأشار إلى ثمانية خصال هي من أسباب موت القلوب وعدم استجابة الدعاء، فقال: قلوبكم ميتة لأنكـم عرفتـم حـق الله ولم تقومـوا بحقـه، وقـرأتم القـرآن ولم تعملـوا بحدوده، وقلتم نحب رسـول الله ﷺولم تعملـوا بسـنته، وقلتـم نخشـى المـوت ولم تستعدوا له، وقال تعالى: (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَـدُوًّا) (سـورة فـاطر: ٦) فواطأتموه على المعاصي، وقلتم نخاف النار وأرهقتم أبدانكم فيها، وقلتم نحـب الجنة ولم تعملوا لها، وإذا قمتم من فرشكم رميتم عيوبكم وراء ظهوركم وافترشـتم عيـوب الناس أمامكم فأسخطتم ربكم فكيف يستجيب لكم؟ (حوى، ١٤٠٣هـ: ١٣٠-١٣٨).

Marfat.com

ثم أخذ الشيخ يبكي على القلوب الميتة ثم قال : مساكين أهل الغفلة! خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها! اعلم ياولدي أنه لا شيء أحب للقلوب من خالقها وفاطرها، فهو إلهها ومعبودها، وهو وليها ومولاها، وهو ربها ومدبرها ورازقها، وهو محييها ومميتها، فمحبته نعيم النفوس، وحياة الأرواح، وسرور النفوس وقوت القلوب، ونور العقول، وقرة العيون، وعمارة الباطن، فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة والعقول الزكية أحلى، ولا ألذ، ولا أطيب، ولا أسر، ولا أنعم من محبته، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتم من كل نعيم، واللذة التي تناله أعلى من كل لذة.

والقلب لا يفلح ولا يصلح ولا يتنعم ولا يبتهج ولا يلتذ ولا يطمئن ولا يسكن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له جميع ما يلتذ به من المخلوقات، لم يطمئن إليها، ولم يسكن إليها، بل لا تزيده إلا فاقة وقلقاً، حتى يظفر بما خلق له وهيئ له من كون الله وحده نهاية مراده، وغاية مطالبه، لأن فيه فقراً ذاتياً إلى ربه وإلهه من حيث هو معبوده ومحبوبه وإلهه ومطلوبه، كما أن فيه فقرا ذاتياً إليه من حيث هو ربه وخالقه ورازقه ومدبره. وكلما تمكنت محبة الله من القلب وقويت فيه، أخرجت منه تألهه لما سواه وعبوديته له. (ابن القيم، ١٣٨١هـ: ١٩٤-١٩٥). فتذكر قول الإمام ابن الجوزي-رحمه الله- حيث قال:

Marfat.com

يا صاحب الخطايا أين الدموع الجارية؟ يـا أسـير المعـاصي ابـكِ مـن الذنـوب الماضية، يا مبارزاً بالقبائح أ تصبر على الهاوية؟

يا ناسياً ذنوبه والصحف للمنسي حاوية.

أسفاً لك إذا جاءك الموت وما أنبث، وا حسرة لك إذا دعيت إلى التوبة فما أجبت!

كيف تصنع إذا نودي بالرحيل وما تأهبت؟

ألست الذي بارزت بالقبائح وما راقبت (السيد، ١٤٠٦هـ: ٨٧).

ياولدي نفس والدك من هذه النفوس المطمئنـة إلى ربـها، وهـي أشـرف النفوس وأزكاها، أما أنت ياولدي فنفسك قد فتنتها الشهوات والهوى، ولذلك تتألم وتتعذب فهل لك أن تصلـح نفسـك! فعليك أن تتـوب لأن (التوبـة هـي طريـق السـالكين إلى ربـهم، وزاد المؤمنـين في آخرتـهم ورأس مـال الفـائزين في دنياهم وآخرتهم، فما نجا من نجا يومّ القيامة يوم الحسرة والندامة إلا بالتوبة النصوح، التي فيها العزم على الإخلاص لله وحده، إنها هي وحدهـا السـبيل لتحقيق ما يرضي الله عنا، والابتعاد عما يغضبـه منـا، إنـها تمحـو الذنـوب، وتستر العيـوب، إنـها تـهدي النفس الإنسـانية والقلـوب البشـرية) (السـيد، ١٤٠٦هـ: ٦). ارحم نفسك ياولدي، وعالج نفسك.

Marfat.com

-أجابه ساخط: حسبك ياشيخ، فأنت لم تعرفني بعد! وهل كل من في السجن نفوسهم مفتونة بالشهوات والهوى؟ وهل أنت من أصحاب النفوس المفتونة بالشهوات؟

-قال الشيخ:

أنا العبد الذي كسب الذنوبا ... وصَدَّتْه الأماني أن يتوبا
أنا العبد الذي سُطِرَتْ عليه ... صحائفُ لم يَخَفْ فيها الرقيبا
أنا العبد المسيء عصيت سرا ... فما لي الآن لا أبدي النحيبا
أنا العبد المفرط ضاع عمري ... فلم أرع الشبيبة والمشيبا
أنا العبد الغريق بلج بحر ... أصيح لربما ألقى مجيبا
أنا العبد السقيم من الخطايا ... وقد أقبلت التمس الطبيبا
أنا العبد الشريد ظلمت نفسي ... وقد وافيت بابكم منيبا
أنا الغَدَّارُ كم عاهدت عهداً ... وكنت على الوفاء به كذوبا
أنا المقطوع فارحمني وصِلني ... ويَسِّرْ منك لي فرجاً قريبا

(الحازمي، ١٤١٩هـ: ٣/١٨-١٩)

نعم ياولدي أنا مفتون بالشهوات، ولو لم أتلذذ وأشتهي الانتقام والغدر لما كنت هنا، لكن أحاول أن تكون نفسي مجاهدة صابرة، حتى يلهمها الله الطريق إليه، وأصل بها إلى الطمأنينة، فتكون نفساً مطمئنة راضية مرضياً عنها من قِبَل خالقها ومولاها. اجلس ياولدي، اجلس ياولدي. فقد أحببتك! لأن

Marfat.com

والدك كما أخبرتني يزدد ما فيه خير ويدعو بالخير، فلعلك تكون ثمـرة لذلـك الخير! ما اسمك ياولدي؟

أجابه (ساخط) : اسمي (ساخط)

-قال الشيخ: لا يمكن أن يكون هذا اسمك، فـأبوك-رحمـه الله-رجـل صـالح كما يبدو من حديثك عنه، ويعرف أهمية الاسم الحسن.

ساخط: بصوت هادئ: رحمه الله، رحمه الله، رحمه الله، نعـم إن لـدي اسماً آخر.

-الشيخ: ولماذا تسمي نفسك (ساخط)؟

(ساخط) : سوف أخبرك أيها الشيخ-الوقور، ورجعتْ إلى ذهني بقيـة الصور التي قطعها سعال الشيخ عند التواب قبـل أن يتحـدث بـهذا الحديـث الطويل، وأخذت أعيد له تلك الصور وأنا لا أعلم لماذا أعيـد لـه قصـة حيـاتي التي مضيء عليها زمن وأنا أحاول أن أمحوهـا مـن الذاكـرة إلى أن وصلـت إلى طردي من قبل صاحب البيت وخروجي هائماً، لا أعـرف أيـن أذهـب؟ وقـد اشتد بي الجوع وليس معـي مـال: ولا أعـرف مـاذا أصنـع: وقطـع تصوراتـي صوت الشيخ وهو: يقول حسبي الله ونعم الوكيل: حسبي الله ونعـم الوكيـل! ماذا صنعتَ بعد ذلك ياولدي؟ أقول لك ياولدي: لأنك بمثابـة ابـني، وأنـا لا أريد أن أدعوك (ساخط) بل اسمك (راضي) ضحك (ساخط) بصعوبة وهو يقول

Marfat.com

لقد حرمت من هذا الاسم منذ سنين. قاطعه الشيخ: هل يعـني هـذا أن اسمـك (راضي)!

-قال (ساخط): سوف تعرف ياشيخ (عبد التـواب). وقطـع حديثـهم صوت المؤذن لصلاة الظهر وهو يقول: حي على الصـلاة، حـي علـى الصـلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح،. قام الشيخ وقال لـــه: جـاء المنـادي مـن المـلِـك الكريـم، وعلـى العبـد إجابـة مـولاه، لقـد أحببتـك في الله يـاولدي، ولنذهب معاً إلـى بيت الله لنحيي القلوب، ونمحو الذنـوب، لنـؤوب يـاولدي ونتوب، فلا يعرف السر والنجوى سوى علاّم الغيوب، وهو وحده الذي يزيل الحُوب ويقبل التوب. علينا ياولدي أن نجتهد ونستيقظ من رقدة الغفلة عسـى أن نسلم من النار، ونتخلص من الأوزار، ولنبادر إلى التوبة فإن الأجل محتوم، والدنيا غرور، المنقذ منها الصلاة، لأنها نور تجلب الحبـور، وتطـرد الشـرور، ونورها معنا في القبور، وهي أول ما يسأل عنه العبد يوم النشور، عندمـا يجـد كل عمل صغير أو كبـير في صحيفتـه مسـطوراً، أسـأل الله يـاولدي أن يرزقنـا جميعاً سلوك الأبرار الذي يقودنا إلى سلوك المقربين السابقين.

-ساخط: لم أفهم ياوالدي العبارات الأخيرة التي ذكرتها!

-قال الشيخ: اعلم ياولدي أن السلوك سلوكان للمسلم الذي وفقه الله، السلوك الأول لفئة هداها الله إلـى طريق الخير، فيسر لها سـلوك طريـق الأبـرار أهـل اليمين، فنجدهم يأدون الواجبات، ويـتركون المحرمـات باطنـاً وظـاهراً، هـذا

Marfat.com

السلوك يرتقي بهم إلى درجة القرب، فيكونون من المقربين السابقين فتجدهم يفعلون الواجب والمستحب بحسب الإمكان، ويتركون المكروه والمحرم (الحراني، ١٤١٥هـ: ٩-١٠).

-ساخط: وهل يمكن ياشيخ للْشَرِّير أنِ يترك الشر ويقبل على الخير.

-الشيخ: نعم ياولدي أنظر لما قاله الشيخ عبد القادر الجيلاني-رحمه الله-فقد قال: (أجعل الخير والشر ثمرتين من غصنين من شجرة واحدة، أحد الغصنين يثمر حلواً والآخر مراً، فاترك البلاد والأقاليم ونواحي الأرض التي يحمل إليها هذه الثمرة المأخوذة من هذه الشجرة، وابعد منها ومن أهلها، واقترب من الشجرة، وكن سائسها وخادمها القائم عندها، واعرف الغصنين والثمرتين والجانبين، فكن إلى جانب الغصن المثمر حلواً، فحينئذ يكون غذاؤك وقوتك منها، واجتنب أن تتقدم إلى جانب الغصن الآخر، فتأكل من ثمرته، فتهلك من مرارتها، فإذا دمت على هذا، كنت في دعة وأمن وراحة وسلامة من الآفات كلها، إذ الآفات وأنواع البلايا تتولد من تلك الثمرة المرة، وإذا غبت عن تلك الشجرة، وهمت في الآفاق، وقُدِّم بين يديك من تلك الثمرتين، وهي مختلطة غير متميزة الحلوة من المرة فتناولت منها، فربما وقعت يدك على المرة فأدنيتها من فيك، فأكلت منها جزءاً ومضغته، فسرت المرارة إلى أعماق لهواتك، وباطن حلقك ودماغك وخياشيمك، فعملت فيك، وسرت في عروقك وأجزاء جسدك فهلكت بها، ولفظك الباقي من فيك، وغسلُ أثره لا ينفع ولا

Marfat.com

يدفع عنك ما قد سرى في جسدك ولا ينفعك، وإن أكلت ابتداء من الثمرة الحلوة، وسرت حلاوتها في أجزاء جسدك، وانتفعت بها وسررت، فلا يكفيك ذلك، إذ لا بد من تناول غيرها ثانياً، فلا تأمن أن تكون الثانية من المرة، فيحل بك ما ذكرته لك، فلا خير في البعد عن الشجرة والجهل بثمرتها، والسلامة في قربها والقيام معها، وإنما الخير والشر بفعل الله عز وجل، والله هو فاعلهما ومجريهما) (الحراني، ١٤١٥هـ: ١٠٧-١٠٨).

ويسير الاثنان إلى بيت الله، ولم يشعر (ساخط) بالجوع إلا بعد أن مشى مسافة، حرَّكت الجوع، وتذكر أنه لم يفطر بعد، لقد شغله حديث الشيخ (عبد التواب) عن الإحساس بالجوع، وحرك قلبه إلى الرجوع والخضوع.

Marfat.com

أدى الصلاة مع الشيخ الوقور، ونسي نفسه والجوع الذي يعتصر أمعاءه وبطنه الخاوية، وأخذ يقارن بين الجوع السابق عندما خرج من بيت عمه ولا يعرف أين يذهب، وجوع اليوم والطعامُ قريب، لكن متعته بغذاء الروح أكبر، وقد نسي الجوع من خلال حديث الشيخ (عبد التواب) الذي أخذ يدعو بعد الصلاة، ويقول:

إلهي عبدك الآبق رجع إلى بابك، عبدك العاصي رجع إلى الصلح، عبدك المذنب أتاك بالعذر، فاعف عني بجودك، وتقبلني بفضلك، وانظر إليّ برحمتك!

اللهم اغفر لي ما سلف من الذنوب، واعصمني فيما بقي من الأجل، فإن الخير كله بيدك، وأنت بنا رؤوف رحيم، يا مجلي عظائم الأمور، يا منتهى همة المهمومين، يا من إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون، أحاطت بنا ذنوبنا وأنت المدخر لها. يا مدخراً لكل شدة، كنت أدخرك لهذه الساعة، فتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم.

يا من لا يشغله شأن عن شأن، ولا سمع عن سمع، يا من لا تغلطه كثرة المسائل، يا من لا يبرمه إلحاح الملحّين، أذقنا برد عفوك، وحلاوة مغفرتك، برحمتك يا أرحم الراحمين، إنك على كل شيء قدير، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وبارك وسلم. (الغزالي، ١٤٠٩هـ: ٢٦).

Marfat.com

وخرج بعد أداء صلاة الظهر مع الشيخ (عبد التواب)، فقال له الشيخ: أظنك جائعاً، وسوف أدعوك إلى الطعام، ذهب الشيخ، واشترى لبناً من بقالة السجن، وأخرج تمراً كان معه، وأخذ يقدم ما لديه لِـ(ساخط)، وأخذ يأكل ويشرب اللبن وهو يتلذذ به كأنه لم يذق في حياته طعاماً أحسن من هذا الطعام، نعم، إنه اللبن والتمر، وأخذ الشيخ يتحدث عن هذه النعمة، اللبن والتمر، وكيف أنهما غذاءان كاملان، أوجدهما الله لعباده، تساعدهم على عبادة الله، وتقويهم على طاعة الله؟ وبعد الانتهاء أخذ الشيخ يقول: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين من غير حول منا ولا قوة، اللهم أطعم من أطعمنا، واسق من سقانا، وارزقنا اللهم إليه طريقاً سهلاً من غير منة ولا نصب ولا تعب، وصلى الله على سيدنا محمد.

واستمرت هذه الصور للشيخ عبد التواب يشاهدها (ساخط)، وأصبح مع الشيخ يشعر بالسعادة والطمأنينة، كما قال له سابقاً حارس السجن منذ أول يوم: ما أعجب هذا الأمر! خرج الشيخ من صمته، وقال:

ياولدي إني أريد أن أرتاح، ومن السنة الراحة والقيلولة، لكي أستعين بهما على قيام الليل، وإن أردت الحضور سوف نلتقي في المسجد بعد صلاة العصر إن شاء الله.

Marfat.com

ويذهب (ساخط)، لكي يرتاح الشيخ، ويرجع إلى زنزانته، ودخلها بشعور غير شعور الأمس، فقد وجدها اليوم فسيحة بعد أن كانت في الأمس ضيقة، كما وجدها اليوم مضيئة بعد أن كانت في الأمس معتمة، ووجدها اليوم

وقبل أن يستكمل ما يدور في مخيلته، سمع صوت مجموعة من الأفراد يطلبون النجدة والمسارعة للمساعدة، خرج مسرعاً من زنزانته، فوجد شاباً في الثلاثين من العمر (أي قريباً من سنه) وهو ساقط على الأرض، وقد تجمع حوله مجموعة من الأفراد، وهم يصرخون، لكي يأتي حارس السجن، لإسعاف المصاب أو لنقله إلى أقرب مشفى، وقدم الحارس وطلب الإسعاف، وقدم رجال الإسعاف، وحاولوا أن يسعفوا الرجل، ووجد الطبيب ضرورة نقله إلى المستشفى.

طوال هذه الفترة (وساخط) مع بقية المساجين يحاولون أن يساعدوه دون فائدة، فجسمه متشنج: ولونه متغير: ويده قابضة على ورقة صفراء كأنها أعز ما يملك لم يستطع أحد أن يتعرف على سر هذه الورقة إلا بعد يومين عند ما قدم حارس السجن إلى زنزانة الرجل وأخذ في جمع أغراضه وأمتعته الشخصية، سأله (صادق)–وهو أقرب فرد إلى (محسن). وقال له: أين محسن، هل هو بخير؟ فالتفت الحارس، وقال: أرجو أن يكون بخير، فهو (محسن)، أرجو أن يتقبل الله إحسانه.

–قال صادق: ولماذا تأخذ أمتعته؟ هل تم إطلاق سراحه؟

Marfat.com

-حارس السجن: نعم يا (صادق)، قد تم إطلاقه من سجن الدنيا، أرجو أن يكون مكانه نعيم الآخرة، فقد كان (محسناً). وآخر ما طلب في حياته كما أخبرني الطبيب أن يقرأ له الطبيب ورقة كانت معه.

-(صادق): نعم، فقد كانت معه ورقة، هل تعني أنه مات؟

وفجأة مَرَّ (ساخط)، وشاهد الحارس يجمع المتاع، فأقبل و(صادق) يجهش بالبكاء، هل مات (محسن)؟ إنه شاب! إنه شاب! إنه شاب! قاطعه السجان قائلاً: هل الموت يعرف كبيراً أو صغيراً؟ لكن الحمد لله على حسن الخاتمة. وفي هذه اللحظة تكلم (ساخط) قائلا: هل فعلا مات (الشاب)؟ أنا لا أعرف اسمه، ولكن منذ أن حُمِل والسجناء يثنون عليه، وقد أخبرني الشيخ (عبد التواب) أنه شاب، عصى الله، ثم تاب، ويرجو الله أن تكون توبته نصوحاً.

-**قال حارس السجن:** نعم يا (ساخط) فإن (محسن) قد وقع في مخالفة شرعية، وارتكب ذنباً أوجب عليه السجن، وفي السجن كانت له فرصه لمراجعة الذات، وبوجود الشيخ (عبد التواب) تمكن من محاسبة نفسه، وقد كان دائماً يقرأ القرآن، ويحرص على ترداد بعض الأبيات التي كان يحملها في يده منذ عدة أيام كتبها من أحد الكتب التي كان يقرأ منها الشيخ (عبد التواب)، وكان آخر طلب له في الحياة أن يقرأ الطبيب له تلك الورقة التي كتب فيها:

Marfat.com

أستغفر الله مما كان لي من زللـــي ومن ذنوبي وإفراطي وإصـــــراري
يا ربِّ هب لي ذنوبي يا كريمُ فقد حَكَمْتَ حبلَ الرجا يا خيرَ غفـــار
إن الملوك إذا شابت عبيدُهـــــم في رقهم عتقوهم عتق أحـــــراري
وأنت يا سيدي الأولى بذا كَرَمـــاً قد شِبْتُ في الرق فاعتقني مـن النار

فكان آخر ما تلفظ بـه: يـارب أشـهد أنـك الله الواحـد الأحـد الفـرد الصمد، وأن نبيك هو سيدنا محمـد عبـدك ورسـولك، وأنـا عبـدك، أرجـو أن أكون على نهج نبيك، فاعتقني من النار، ثم أسلم الروح لخالقه:

(ساخط): يا إلهي! هل كان مريضاً؟ أو يشكو من علة؟

(صادق): لم يكن مريضاً، بل كـان في أتم صِحته، قـد صـدق الشـيخ (عبـد التواب)،

(ساخط): ماذا قال؟

صادق: قد قال لي: اعتبر بمن سبقك، ولا تغـتر بشـبابك، فـإن مـوت الأطفال والشبان أكثر من الشيوخ، يارب! يارب! يارب سلِّم، جاء اليوم الذي فقدت فيه أعز صديق، فهل يكون جواب (محسن) كجواب صاحب العابد؟

ساخط: ما ذا تقول؟ ماذا أصابك؟ فمنذ أن ذهب حارس السجن وأنت لم تكف عن الحديث.

Marfat.com

-صادق: لا أعلَم ما أقول، فقد مرت بذهني القصة التي أخـبرني بـها وأخـبر بها (محسن) الشيخ عبد التواب، وأحسست أنها تنطبق على واقع اليوم.

-ساخط: ما ذا قال الشيخ ؟

-صادق: قد كتبتُ ما قال، وسوف أقرأ لـك مـن مفكرتـي الـتي دونـت فيـها كلامه، حيث قال: إن بعض المتعبدين أتى قبر صاحب له، فأنشد وقال:

مالي مررت علـى القبور مسلِّمـا قبر الحبيب فلم يرد جوابـي
أحـبيـبُ مـالك لا تجيب منادياً أمللـت بعدي خلة الأصحاب

فهتف هاتف جانب القبر وقال:

قال الحبيب وكيف لي بجوابكم وأنا رهين جنادل وتـــراب
أكل التراب محاسني فنسيتكـم وجنبت عن أهلي وعن أحبابي

وقد قال الشيخ (عبد التواب): إنه لم يأت على القبر يـوما إلا تكلـم فيـه قائلاً: أنا بيت الغربة، أنا بيت الوحدة، أنا بيت التراب، أنا بيت الدود والهوام. وأخبرنا: أن القبر إما روضة من رياض الجنة و إما حفرة من حفر النار، وهـو أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه الفرد فما بعده أيسر منـه، وإن لم ينـج منـه فما بعده أشد منه، وأن الميت في القبر كالغريق المستغيث، ينتظر دعوة تلحقـه مـن أب أو أم أو أخ أو صديق، فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا ومـا فيـها، وأن الدعاء هو هدية الأحياء للأموات، وأخبر أنه وجد مكتوباً على قبر:

Marfat.com

إن الحبيبَ من الأحباب مختلسٌ   لا يمنعُ الموتَ بوّابٌ ولا حَـرَسُ
وكيف تَفْرَحُ بالدنيا وَلَذَّتِهَـا   يا من يُعَدُّ عليه اللفظُ والنَّفَسُ
أصبحتَ يا غافلاً في النقص منغمساً   وأنت دهرُك في اللذاتِ مُنغمسُ
لا يرحم الموت ذا جهل لغرته   ولا الذي كان منه العلم يقتبس
كم أخرسَ الموتُ في قبرٍ وقفتُ بـه   عن الجوابِ لساناً ما به خرس
قد كان قصرك معموراً له شـرفٌ   وقبرك اليوم في الأجداثِ مُنْـدَرِسُ

وذكر الشيخ أن النفس الطيبة تخرج إلى مغفرة الله، وتصعد بها الملائكة فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ وأنه لينظر لمقعده من الجنة، وأن الكافر يقال لـه: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط الله، فتخرج كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، ويصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث، وانه ينظر لمقعده من النـار، ولسان حاله يقول:

أسلَمَنِيْ الأهلُ ببَطْنِ الثرى   وانصرفوا عني فيا وحْشَتَـا
وغـادروني معدماً يائساً   ما بيدي اليوم إلا البُـكـا
وكلٌ ما كان كأن لم يكـن   وكل ما حِذْرَتُه قد أتـى
وذاكم المجموعُ والمقتنى   قد صار في كفي كمثل الهبَـا
ولم أجد لي مؤنساً هاهُنـا   غيرَ فجور كان لي أو خَنَـا
فلو تراني أو ترى حالتي   بكيت لي يا صاحِ مُسْتَعْلِنَـا

(المعيري، د.ت: ١/١٨٢-١٩٠).

Marfat.com

هذا مصير من تبع هواه، وأعرض عن طاعة مولاه، وأقبل علـى لـذات دنياه، والمحجوبون عن الوصول إلى الله بشهوات الدنيا وهوى النفس وغرورها مختلفون، فمنهم من حجب بالظلمة العظمـى وهـي ظلمـة الكفـر، ومنـهم مـن حجب بظلمة الشهوة والهوى، ومنهم مـن حجـب بظلمـة الصفـات السـباعية وهي شهوة الانتقام والاعتداء على الخلق وكسر القلوب وإيذاء النفوس، ومنـهم من حجب بظلمة المال، فهم يجتهدون في جمعه وادخاره، فيكون عبداً للدينار والدرهم والقطيفـة والخميـصة، ومنـهم مـن حجـب بظلمـة الرياسـة والجـاه، ومنهم من حجب بظلمـة محبـة الصـور الجميلـة، ومنـهم مـن حجـب بظلمـة الحسد، ومنهم من حجب بظلمـة الريـاء، ومنـهم مـن حجـب بظلمـة الكـبر، ومنهم من حجب بظلمة العجب، إلى غير ذلك من الصفات الذميمة الـتي هـي قواطع وحجب وعوائق تعوق عن السـلوك إلى الله تعـالى والوصـول إلى رضوانـه (الأموى، د.ت. ٢/٢٣-٢٤).

أما العبد الصال،ح فقد أعد الله لـه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، بناؤها لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وتربتها الزعفران، مـن يدخلـها ينعـم ولا ييأس، ويخلد ولا يموت، أهلها لا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم، مفتاحـها لا إله إلا الله، وإليها يشتاق المشتاقون، وصدق القائل:

Marfat.com

فيا عجبا تدري بنارٍ وجنـــــــةٍ وليس لذي تشتاق أو تلك تَحْـذَرُ
إذا لم يكن خوف وشوق ولا حـا فماذا بقي فينا من الخير يُذكَــرُ
ولسنا لِحَرٍّ صابريــن ولا بلـــى فكيفَ على النيرانِ يا قومُ نصبـرُ
وفَوْتُ جنانِ الخُلد أعظمُ حسـرةٍ على تلك، فليتحسَّرِ الـمتحسِّـرُ
فأفٍ لنا أفٍ! كلابُ مزابـــلٍ إلى نَتْنها نغدوا ولا نتدبَّـــــرُ
نبيع خطيراً بالحقير عمايــــة وليس لنا عقلٌ وقلبٌ مُنــــوَّرُ
فطوبى لمن يؤتى القناعة والـتقى وأوقاته فــي طاعة الله تَعْمُــــر

(المعيري، د.ت. ١/٢٤٦-٢٥٠).

Marfat.com

خرج (ساخط)، ويده في يد (صادق)، لأن صادق لم يمسك نفسه من شدة التأثر، وتكاد رجلاه لا تحملانه، وهو يبكي ويقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله، فقد استعاد الله وديعته، وأخذ عبده، لا أستطيع أن أقول غير ذلك، فقد علمني الشيخ عبد التواب أن الصبر على قضاء الله عند الصدمة الأولى هو أساس لكل خير. واستمرا في السير، وفي طريقهما نظرا، وإذا بالشيخ (عبد التواب) سائر إلى المسجد، وعند مشاهدته (لصادق) أقبل عليه، وقال: رحم الله أخاك (محسن)! فقد جمعتْكما الأخوة في الله، وكان سبباً ساقه الله إليك للهداية، فله في ذمتك حق. وحقه أن لا تنساه من الدعاء الصالح ما استطعتَ، فإن الدعاء للمسلم أنيس، وهو نعم الجليس، رحم الله محسا! أتذكر كيف أن أفراد السجن كانوا يخافون تجبُّره وتكبره؟ ثم كيف أصبحوا ينعمون في خيره وإحسانه؟ فرغم أنه في السجن إلا أنه طلب من أقاربه أن يتخلَّصوا من كل مال حرام عنده، وأمرهم أن يشاركوا في تهيئة حياة شريفة لمجموعة من المساجين خارج السجن، وقد تاب، لأن التوبة هي عبارة عن الرجوع عن المخالفات، وأداء لحقوق الناس المترتبة في ذمة الفرد، مما لا يزول إلا بعفوهم عن ذلك أو القصاص، أو ردِّ ما يقدر على ردِّه من ذلك، إنه تاب توبة نصوحا، وآب وأناب إلى الله.

Marfat.com

-قاطع (ساخط) الشيخ، وقال: ياشيخ، لم أعرف ما تقول، ولم أفرق بين التوبة والأوبة والإنابة.

-قال الشيخ: مهلاً ياولدي، فإن هذا الأمر يحتاج حقاً إلى إيضاح، لكن لا وقت لدي الآن، والذي ينبغي أن تعرفه على عجل أن للتوبة بداية ووسطاً وغاية، فبدؤها يسمى توبة، ووسطها يُسمى إنابة، وغايتها يسمى أوبة، فالتوبة للخائف، والإنابة للطائع، والأوبة لراعي الأمر الإلهي.

-(ساخط) : ياشيخ، التوبة مِنْ ماذا؟

-الشيخ: التوبة من الذنوب.

-ساخط: ما الذنوب؟

الشيخ: لقد قربنا من المسجد، وليس لدي وقتٌ الآن، لكن أذكر لك أقوالاً في الذنوب، قالها بعض السلف الصالح، حيث قالت الصدِّيقةُ بنت الصديق رضي الله عنها وعن أبيها، أم المؤمنين السيدةُ عائشة رضي الله عنها: من سره أن يسبق الدائب المجتهد فليكفَّ نفسَه عن الذنوب، فإنكم لن تلقوا الله بشيء خير لكم من قلّة الذنوب. وقال سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ: إن المؤمن ليرى ذنوبه كأنه جالس في أصل جبل، يخشى أن ينقلب عليه، وإن الفاجر ليرى ذنوبه كذُباب مرّ على أنفه، فقال به هكذا. وقال بلال بن سعد رحمه الله: لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر من عصيت. وقال سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: لنفسُ المؤمن أشدُّ ارتكاضا من الخطيئة من

Marfat.com

العصفور حين يقذف بـه. **وقال ابن المبارك-رحمه الله-إن رجلاً قال:** يا رسول الله ليس أحد يعمل مثقال ذرة خيراً إلا رآه، ولا يعمل مثقال ذرة شراً إلا رآه؟ قال ﷺ نعم، قال فانطلق الرجل وهو يقول: وآسوأتاه! قال النبي ﷺ : آمن الرجل. **وقال الضحاك رحمه الله:** ما من أحد تعلّم القرآن ثم نسيه إلا بذنب يحدثه. قال سيدنا ثوبان ﷺ: -قال رسول الله ﷺ :إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه (المروزي: ١٣٨٥هـ: ٢٢-٢٩). **ويقول المحاسبي رحمه الله:** كن للعقوبات منتظراً، إذا كنت من الذنوب غير متطهر، ولا تستنكرها عند نزولها، فإنك مستحق لأعظم منها، فالعفوُّ أمسك عنك عظيمها (المحاسبي، ١٤٠٦هـ: ٣٥١).

وقد قيل: ياولدي إن الذنوب هي أعمال مشتهاة، فكيف يجد الفرد مرارتها؟ وقد مثل الغزالي-رحمه الله-الذنوب بمثال: من تناول عسلاً كان في داخله سم ولم يشعر بذلك السم، بل استلذ طعم العسل مع السم، فكانت النتيجة أن مرض، وطال مرضه وألمه، وتناثر من شدة السم شعره، وفلجت أعضاؤه، فإذا قدم له العسل وفيه مثل ذلك السم وهو في غاية الجوع والرغبة لحلاوة العسل، فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل آم لا؟ فمن قال: لا فقد جحد المشاهدة، بل ربما كان النفور من جنس العسل لشبهة فيه. فشعور التائب بمرارة الذنب مشابه لما سبق ياولدي. ولذلك يعلم الفرد بأن كل ذنب ذوقه ذوق العسل، وعمله عمل السم، ولا تصح التوبة ولا تصرف إلا بمثل هذا

Marfat.com

الإيمان. ولما كان مثل هذا الإيمان ليس سهلاً بل عزيزاً، عزّت التوبة والتائبون، فَجُلُّ الأفرادِ معرضون عن الله تعالى، متهاونون بالذنوب، مُصِرُّون عليها، فالتوبة تحتاج إلى الندم المستمر إلى الموت، وينبغي أن يجد التائب هذه المرارة في جميع الذنوب، وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل، كما يجد متناول السم في العسل النفرة من الماء البارد إذا علم أن فيه مثل ذلك السم، حيث إن الضرر الذي لحقه لم يكن من العسل، بل من السم الموجود في العسل، ولذلك نجد أن الضرر الذي يلحق التائب من سرقته وزناه لم يكن من حيث إنه سرَق وزنا، بل من حيث إنه من مخالفة أمر الله تعالى، وهذا الأمر في كل ذنب: (الغزالي، ١٩٩١م: ٧٥-٧٦).

لذلك ياولدي السم القليل مع العسل أخره كان كبيراً، وكاد أن يهلك الرجل، وكذلك الذنوب مهما صغرت، وقد قيل: إن صغائر الذنوب تكثر حتى تهلك صاحبها، كما تهلكه الكبيرة فإياك ياولدي ومحقّرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتي يهلكنه: (المحاسب، ١٩٧٧م : ٦٩).

ويقول الإمام الغزالي رحمه الله: إن شؤم الذنوب يورث الحرمان، ويعقب الخذلان، وإن قيد الذنوب يمنع من المشي إلى طاعة الله ﷻ والمسارعة إلى خدمته، لأن ثقل الذنوب يمنع من الخفة للخيرات والنشاط في الطاعات، وإن الإصرار على الذنوب مما يسوّد القلب، فتجدها في ظلمة وقساوة لا خلوص

Marfat.com

بها، ولا صفاوة ولا لذة ولا حـلاوة، وإن لم يرحـم الله، فسـتجرُّ صاحبـها إلى الكفر والشقاوة (الغزالي، ١٤٠٩هـ: ١٩).

-(ساخط) قاطع الشيخ، وقال: لهذا السبب لم أكن أحافظ على الصلاة! لهذا السبب كنت أبيع الحرام! لهذا السبب كنت لا أبالي بشيء ولا تؤثـر في قلـبي آية! لهذا السبب لم أكن أفكر في الموت ولو لحظة، لهذا السبب كنت أظن أن السعادة هي المال فقط! لهذا السبب...

-قاطعه الشيخ، وقال ياولدي شؤم المعاصي كبير، وعليك بالتوبة النصوح التي هي جلاء للنفوس وصفاء للروح وطب لكل مكلوم أو مجروح.

-(صادق) : ياشيخ، سـبق أن قلـت: إن (محسـن) قـد تـاب توبـة نصوحـاً، فكيف عرفت؟

-الشيخ (عبد التواب) دعونا نصلِّ الآن، فقد وصلنا إلى المسجد، وبعد الصـلاة وأداء السنة التي أرشدنا للقيام بها الحبيب المصطفى ﷺ، أخبرك.

Marfat.com

اعلم ياولدي أن التوبة النصوح ذكرت مـرة واحـدة في القـرآن الكريـم في سورة التحريم، حيث قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَـى اللَّـهِ تَوْبَـةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِـهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْـعَى بَيْـنَ أَيْدِيـهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). (سـورة التحريم: ٨).

ذكرت التوبة النصوح في سـورة التحريـم، وهـي السـورة الـتي تعـرض صفحة من الحياة الأسرية في بيت الحبيـب المصطفـى ﷺ، وتمثـل صُورة مـن الانفعـالات والاسـتجابات الإنسـانية في بعـض نسـائه -رضـوان الله عليـهن أجمعين-، وتظهر بعض الأمور التي حدثت في ذلك البيت الكريم، كي تكـون نبراساً لما ينبغي للمرأة المسلمة أن تقوم به، وما لا ينبغي أن تقوم به، مع بيان أهمية الأسرار الزوجية وصيانتها وعدم إفشائها وإظهار ما يسببه الإفشـاء، ثـم كان الخطاب للمؤمنين بوقاية الأنفس والأهـل مـن النـار الـتي وقودهـا النـاس والحجارة، ثم الخطاب للكفار بعدم الاعتذار، وأنهم سـوف يجـزون علـى مـا عملوا، ثم يأتي الطلب من الرحيم-سبحانه وتعالى-لكل مؤمـن بالتوبـة إلى الله توبة نصوحاً، لكي تكون جالبة لتكفير السيئات، ودخول الجنات.

وقد بين (سيد قطب)-رحمه الله-أن التوبة النصـوح هـي التوبـة الـتي تنصح القلب، وتخلصه، ولا تغشه، ولا تخدعه. والتوبة عن الذنـب والمعصيـة

Marfat.com

تبدأ بالندم على ما كان، وتنتهي بالعمل الصالح والطاعة، فهي عندئذ تصح القلب، فيتخلص من رواسب المعاصي فلا يعود إلى الذنوب. وإن حدثت هذه التوبة فإن الله يكرم عبدي ويحصل على ما يحب (قطب، ١٤١٢هـ: ٣٦١٨).

وقد أخبر سيدنا أبَيٌّ بن كعب رضي الله عنه: أن التوبة النصوح أن يتوب العبد من الذنب، ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضَّرْع. وقال الحسن البصري رحمه الله: هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى، مُجْمِعاً على أن لا يعود فيه. وقال الكلبي رحمه الله: أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن. وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: توبة توبة نصوحاً تنصحون بها أنفسكم. وقال محمد بن كعب القرظي رحمه الله: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، وإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيء الإخوان. ويقول ابن القيم-رحمه الله-إن النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته.

الثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها، بحيث لا يبقى عنده تردد، ولا تلوُّم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته، مبادراً بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب، والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته، ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه

Marfat.com

السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله ﷻ (ابن القيم، ١٣٩٢هـ: ١/٣٠٩-٣١٠).

فالتائب الصادق كلما اشتد ندمه زاد مقته لنفسه على قبح زلته، فمنهم من قوى مقته لنفسه ورأى تطهيرها بالقصاص، مثل ماعز والغامدية رضي الله عنهما عندما أسلما أنفسهما إلى القصاص غضباً عليها لما فعلت، وقد قال بعض السلف: رأيت ضيغماً العابد قد أخذ كوزاً من ماء بارد، فصبَّه في الجب، وأخذ غيره، فسئل عن السبب، فقال: نظرت نظرة وأنا شابّ، فجعلت على نفسي ألا أذيقها الماء البارد، أنغص عليها أيام الحياة. وهناك العديد من الأفراد الذين اشتهروا بالعبادة، فقد كان بعض العبَّاد كثير البكاء، فعوتب على ذلك، فقال:

بكيت على الذنوب لعظم جرمي وحُقَّ لكلِّ من يعصى البكاء
فلو كان البكاء يردُّ هَمِّي لأسعدت الدُّموع معاً دماء

أيا هذا: ماءُ العين في الأرض حياة الزرع، وماء العين في الخدِّ حياة القلب. يا طالب الجنة: بذنب واحد أُخرج أبوك منها، أفتريد دخولها بذنوب ما تبت عنها؟ وإن امرؤ تنقضي بالجهل ساعاته، وتذهب في المعاصي أوقاته، لخليق أن تجري دائماً دموعه، وحقيق أن يقل في الدُّجى هجوعه يا من ذهب عمره في الخلاف، وصار قلبه بالخطايا في غلاف، إلى كم تعصي وتتمرد، وأقبح من قبيحك أنَّك تتعمَّد! يا رديَّ العزم، يا سيء المقصد، يا نقيَّ

Marfat.com

الثوب والقلب أسود، ما هذا الأمل ولست بمخلَّد؟ أما تخاف من أوْعد وهـدَّد؟ يا مسؤولاً عن القبيح، أتقرُّ أم تجحد؟ يا من شاب ومـا تـاب هـذا الـدأب مـذ أنت أمرد! يا مشترياً لذةً تزولُ بالعذاب السَّـرمد! بـالله عليـك تـأمَّل نصحـي وتَفَقَّد. أما الطريق طويلةٌ، فمتى تتزود؟ تخلَّص من أسر الهوى، فإلى كم مقيّد؟ ميِّز ما يبقى، مما يفنى ثم اطلب الأجود. أسفاً لنفس لا تعقل أمرهـا، ومضـت أيَّامها في الذُّنوب، وجهلت قدرها، ولم تـزل في المعـاصي تضيـع عمرهـا. يـا نادماً على الذنوب أين أثر ندمك؟ أين بكاؤك على زلة قدمك؟ أين حذرك مـن أليم العقاب؟ أين قلقك من خوف العتاب؟ أتعتقد أن التوبة قول باللِّسان؟ إنما التوبة نار تحرق الإنسان، حَرِّر الإقرار، ثم ألبسه الاعتـذار، ثـم حَلِّـهِ بحليـة الانكسار، ثم أقمه على باب الدار. اكتب قصة الرجوع بقلم النزوع، أي بمداد الدموع، واسْعَ بها علـى قـدم الخضـوع، إلى بـاب الخشـوع وأتبعـها بـالعطش والجوع، وسل رفعها، فرُبَّ سؤال مسموع.

مناجاتك نجاتك، وصَلاتُك صِلاتك، نـاد في نـادي الأسـحار، والنـاس نائمون: يا أكرم من أمَّله الآملون، إن طردتني فإلى مـن أذهـب، وإن أبعدتـني فإليك أنسب، علمت ذنبي، وخلقتني، ورأيت زللي، ورزقتني.

لئن جل ذنبي وارتكبت المآثما وأصبحت في بحر الخطيئة عائماً
فها أنا ذا يا رب أقررتُ بالذي جنيت على نفسي وأصبحت نادماً
أجلُّ ذنوبي عند عفوك سيدي حقيرٌ وإن كانت ذنوبي عظائمـــا

Marfat.com

لو رأيت التائب جفناً مقروحاً، تراه في الأسحار على باب الاعتذار مطروحاً، سمع قول الإله يوصي فيما يوحي: (**توبوا إلى الله توبة نصوحاً**). مطعمه يسير، وحزنه كثير، ومزعجه مثير، وكأنه أسير، قد رُمي مجروحاً، (**توبوا إلى الله توبةً نصوحاً**).

أنحَلَ بدنهَ الصيام، وأتعب قدمه القيام، وحلف بالعزم على هجر المنام، فبذل بدناً وروحاً: (**توبوا إلى الله توبة نصوحاً**). الذُّل قد علاه، والحزْنُ قد وهاهُ، يذم بنفسه على هواه، وبهذا صار ممدوحاً، (**توبوا إلى الله توبة نصوحاً**).

أين من يبكي جنايات الشباب؟ التي بها قد اسْوَدّ الكتاب؟ أين من يأتي إلى الباب؟ يجد الباب مفتوحاً، (**توبوا إلى الله توبة نصوحاً**).

اللهم إنا نسألك التوبة ودوامها، ونعوذ بك من المعصية وأسبابها، اللهم ذكرنا بالخوف منك قبل هجوم خطراتها، وأفض علينا من بحر كرمك وعفوك حتى نخرج من الدنيا على السلامة من وبالها، وارأفْ بنا رأفة الحبيب بحبيبه عند الشدائد ونزولها، وأرحنا من هموم الدنيا وغمومها بالرَّوح والرَّيحان إلى الجنَّة ونعيمها، ومتعنا بالنظر إلى وجهك الكريم في جنات النعيم، مع الذين أنعمت عليهم من النَّبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصَّالحين، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، آمين (الأحسائي، ١٣٨١هـ: ٢٨٧-٢٩٢).

Marfat.com

في هذا الوقت أصبح جميعهم يبكي، ودموع العين أصبحت تنحدر من العيون، والشيخ لم يستطع أن يمسك نفسه وقال: أنا الآن لا أستطيع الكلام أرجو أن تسمح لي بالانصراف، أريد أن أجلس مع نفسي، فقد تحدثت كثيراً، ولا أعلم هل ما قلته يكون يوم العرض على الله حجة لي أو عليَّ، انصرفوا، غفر الله لي ولكم وحشرنا جميعاً تحت لواء سيد البشر، الحبيب الأعظم والنبي الأكرم، خير من صلى وصام، وحج بيت الله الحرام صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وبارك وسلم.

-ساخط: ياشيخ، أريد أن تجمل لي التوبة قبل أن تذهب، أرجوك، أرجوك.

-الشيخ: اعلم ياولدي أن التوبة مكونة من ندم وإقلاع وعزم وتدارك لما فات إن أمكن ورد حقوق العباد أو استحلالهم، والندم والعزم محلهما القلب، والإقلاع هو ترك إتمام الذنب الذي عزم عليه أو شرع فيه، والترك أمر قلبي أيضاً، لأنه كف عن فعل باقي المعصية التي بدأها، وأما تدارك ما فات، فمثاله قضاء الصلوات التي عصى بتركها، وهو فعل بالقلب واللسان والجوارح، وكذلك رد الحقوق إلى العباد، فهو فعل بالبدن، واستحلالهم فعل باللسان، وأما ما يقع من الاستغفار والاعتراف بالذنب والبكاء وما شاكل ذلك، فليست من التوبة بل هي من تمامها: (جفال، ١٤٠٩هـ: ٥١).

Marfat.com

(ساخط) قد عرفت ياشيخ التوبة النصوح، لكن هناك سؤال يشغل ذهني، ويدور في فكري، ولم أجد له جواباً، وقد كنت أحتار دائماً عندما أريد أن أقوم بأي عمل، أشعر أنه حرام، أي قبل أن أخالط (قارون) ،الذي كان يضحك ويقول: أنت مسيرٌ ولست بمخيَّر، وكل ما تقوم به هو من الله، وسؤالي ياشيخ: كيف أتوب والمعصية قدرٌ من قدر الله؟.

السؤال السابق ياولدي قد طرحه أفراد واهمون، فأكدوا على أن الإنسان مسير وليس مخير، وأن ما أصابهم هو قدر، فيمتنعون عن دفع القدر بالقدر، وقد أورد ابن القيم في (مدارجه): أن دفع القدر بالقدر نوعان.

الأول: دفع القدر الذي انعقدت أسبابه ولما يقع-بأسباب أخرى، مثل: دفع العدو بقتاله ودفع الحر بتهيئة أسباب دفعه، وكذلك البرد، فتكون الأعمال القتالية والوقائية هي قدراً، وهي أسباب لدفع ما يقع على الإنسان.

الثاني: دفع القدر-الذي قد وقع واستقر-بقدر آخر يرفعه ويزيله، كدفع قدر المرض بقدر الدواء، ودفع قدر الذنب بقدر التوبة، ودفع قدر الإساءة بقدر الإحسان. وبذلك يتضح أن الإنسان مخير، وهو في الوقت نفسه مسير، لأنه تحت المشيئة والإرادة الكونية العامة، إذ لا يكون في ملك الله شيء إلا بعلمه وإرادته ومشيئته، لذلك ياولدي يجب عليك أن تعرف أن الإنسان مُيَسَّرٌ لما خلق له. وعلى الإنسان العمل، فكل ميسر لما خلق له، ولذلك تجد أن أهل السعادة ييسرون من قِبَل الخالق للسعادة، لأنهم طلبوا السعادة، وداوموا

Marfat.com

على أسبابها، فيسر الله لهم طريقها. وأما أهل الشقاوة، فييسرون للشقاوة، فشقاوة الشقي بالأعمال السيئة، وسعادة السعيد بالأعمال الصالحة: (ابن تيمية، ١٤٠٧هـ: ٣٠-٣١).

هذا الكلام يوضح لك ياولدي أن دفع قدر الذنب بقدر التوبة هو مطلب لكل مؤمن بالله، يكون هدفه من التوبة هو تقوى الله، والخوف والخشية من الله، والقيام بأمر الله، واجتناب كل ما نهى عنه الله، فيكون عمله بغرض طاعة الله وفق منهج الله مستمداً من نور الله راجياً ثواب الله، وهذا الكلام لا يتم إلا إذ يَسَّر الله السبل لهذا الباب، وعندما يصبح الإنسان بفضل وكرم من الله عز وجل ميسراً لهذه الأعمال، يجب عليه أن يكون دائم العودة إلى محاسبة النفس وعدم نسيان الذنب، بل يجعله نصب عينيه، يلاحظه في سائر الأوقات، فتكون النتيجة انكسارا وذلاً وخضوعاً لله سبحانه وتعالى، وقد قيل: إن داود عليه السلام نقش الخطيئة في كفه، وكان ينظر إليها ويبكي. ولذلك على العاقل أن ينظر إلى الخطيئة نظرة الندم، ويقبل على التوبة، فينقشع الهم، لأن العاقل واثق من رب قابل للتوبة، فإن حدثت الخطيئة، وعلى الفرد أن ينظر إليها، ليعرف مراد الله فيها، فالخالق ترك العبد لكي يقوده النظر في خطيئته إلى معرفة عزة الله في قضائه وبره في ستره، وحلم الخالق- جل وعلا-في إمهال مرتكب الخطيئة، وكرمه-سبحانه وتعالى-في قبول العذر من العبد، ومنته وفضله في مغفرة الذنب. وفي الوقت نفسه يكون هذا الأمر،

Marfat.com

كي يقيم سبحانه وتعالى على عبده حجة عدلـه، فيعاقبه على ذنبه بحجتـه، فصاحب البصيرة ينظر إلى الخطيئـة حسـب أمـر الله ونهيـه، فيقـر بـالذنب، وينظر إلـى وعيد الله، فتحدث الخشية والخوف في النفس، ويدرك بذلك أنـه عبد ضعيف، ناصيته بيد خالقه، وأنه مغمور بحلم الله وإمهاله لـه، لأنـه لـو أراد العقوبة لعاجَله بها، لكنه-سبحانهُ وتعالى- قبـل العـذر بكرمـه وجـوده، فيدرك بذلك فضل الله في المغفرة لذنبه. وبذلك يـدرك العبـد وجـوب الخضـوع للرب والانكسار بين يديه والافتقار إليه، فتكون النفس المؤمنة بالله ذلهـا لله، وهو ذل حاجة وفقر، وذلها بطاعة الله، وقضاء حق ربوبيتـه بـإفراد المعبوديـة لـه، وذلها ذل المحبة وعلى قدر محبة المحب للمحبوب يكون ذله لـه: (ابن القيم، ١٣٩٢هـ: ١/٢٠٠-٢٠٧).

وبذلك ياولدي يتضح لك: أن ما كان من نكبة، فبذنبك، والله قدرها، أي سبق بعلمه وتقديره أنها ستصيبك بسـبب ذنـب اقترفتـه وفـق اختيـارك، ولذلك ياولدي تجد نفسك إذا أردت الجلـوس فتجلس باختيـارك وكذلـك لـو أردت القيـام، لقمـت، والكـلام نطقـت، لأن الله منحـك ويسـر لـك أجـهزة تساعدك، وترك لك حرية استعمالها مع التوجيه لـما أمرك به، فإن استعملت طاقتك فيما ينفع، فأنت جدير بالمثوبة والمدح، وإلا العقوبة، التي قد تجتمـع من جداول صغيرة فتنقلب إلى نهرٍ يغرق: (الزغبي، ١٩٦٨م: ٨٤-٨٥).

Marfat.com

وبذلك تكون التوبة بالرجوع إلى الله وبالالتزام بفعل ما يحب وترك ما يكره، فالتوبة رجوع من مكروه إلى محبوب، فكل تائب مفلح، ولا يكون مفلحاً إلا من فعل ما أمر به، وترك ما نُهي عنه، لأن تارك المأمور ظالم، وفاعل المحظور ظالم، وزوال الظلم يكون بالتوبة الجامعة للأمرين، وبذلك تكون التوبة هي حقيقة دين الإسلام، لأنها (أي التوبة) لو لم تكن اسماً جامعاً لشرائع الإسلام وحقائق الإيمان، لم يكن الرب-سبحانه وتعالى- يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم، ولذلك حث هذا الدين على الاستغفار، لأن الاستغفار المفرد هو التوبة بعينها، فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل في اسم الآخر عند الإطلاق. أما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى، فيكن الاستغفار طلب وقاية شر ما مضى، وتكن التوبة الرجوع، وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات الأعمال، وبذلك يكون الاستغفار من باب إزالة الضرر، وتكون التوبة طلب جلب المنفعة: (ابن القيم، ١٣٩٢هـ: ١/٣٠٥-٣٠٩).

وبهذا يكون المسلم ياولدي (راضي) دائم الرجوع إلى الله بالاستغفار والتوبة مما وقع، وبذلك تكون التوبة واجبة، وأنها ثمرة الندم الحاصل في القلب نتيجة مخالفة أمر الله ومعصيته، فيدفع القدر بالقدر، وبهذا تتأكد أن للعبد اختياراً في الفعل والترك، لأن الاختيار تيسير من الله، والعبد ميسر للإختيار، فلو نظر الإنسان إلى يده التي يكتب بها، فإن من جملة القدر خلق

Marfat.com

حركة في يد الكاتب بعد خلق القدرة والقصد والعلم والإرادة، فجميع ما في الكون مقدر من الله، فهو وحدة عالم الغيب والشهادة، لا يطلع على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول.

وقد أكد الإمام الغزالي-رحمه الله-ما سبق، ووضح أن نظرة الخلق للأمور مختلفة، وبلوغهم للمفهوم الصحيح مختلف حسب النظرة التي ينظر الفرد إليها، وضرب مثالا بجماعة من العميان، سمعوا أنه حمل إلى بلدهم حيوان عجيب يسمى الفيل، وما كانوا سمعوا به، ولا رأوه، فقالوا: لا بد لنا من مشاهدته ومعرفته باللّمس الذي نقدر عليه، فجاءوا إليه ولمسوه، فوقعت يد بعضهم على رجله، ووقعت يد بعضهم على نابه، ووقعت يد بعضهم الآخر على أذنه. فقالوا قد عرفنا الفيل، فلما انصرفوا سألهم بقية العميان عن الفيل، فاختلفت أجوبتهم، فقال الذي لمس الرِّجْل: ما هو إلا مثل أسطوانة خشنة إلا أنه ألين منها، وقال الذي لمس الناب: ليس كما تقول، بل هو صلب لا لين فيه، وأملس لا خشونة فيه، وليس فيه غلظ إلا أسطوانة أصلاً، بل هو مثل عمود وقال الذي لمس الأذن: إنما هو مثل كساء.

ومما سبق يتضح أن كل واحد منهم صدق إذ أخبر عما وصل إليه من الفيل، ولم يخرج أحد عنها، ولكن أخطأوا إذ ظنوا أنهم أدركوا الكل، وهذا ما يقع فيه كثير من الناس: (الغزالي، ١٤٠٦هـ: ٢١٨-٢٢٠).

فالذي ينظر إلى الإنسان أنه مسير فقط أخذ جانباً من صورة عمل الإنسان، والذي ينظر إلى الإنسان أنه مخير فقط أخذ جانباً من صورة عمل الإنسان، ولا

Marfat.com

تكون الصورة صحيحة إلا بالتسليم بالجانبين، كي يتم التصور الصحيح للصورة الحقيقية للأعمال. فمن لم يدرك صورة التخيير والتسيير، يقع في أمور بعيدة عن جانب الصواب، فمثلاً: حين ننظر إلى تاجر دخل في صفقة، وقدَّر مقدَّماً أرباح وخسارة موارد الصفقة، فاعترض معترض على التقدير، وطلب منه أن يبدأ العمل ثم ينظر، فحدث أن تمَّت الصفقة، وكانت التقديرات كما قدرها مقدماً، ربحاً وخسارة، فماذا يدل هذا الأمر؟ قطعاً إنه يدل على علم وقدرة التاجر في تقدير الأمور، فهو لم يفرض الربح والخسارة، بل معرفته المسبقة هي التي جعلته يحدد الربح والخسارة، وهذا المثل بالتقريب فقط، وليس للتشبيه أو التكييف فلله المثل الأعلى، فهو عالم بشؤون خلقه، مطلع على أعمالهم، فقدر بحكمته ما سوف يقومون، فكتبه لهم، فسبحانه، ليس بظلاَّمٍ للعبيد . والله أعلم.

-ساخط: ياشيخ عبد التواب، هل يمكن أن أقول لك: ياوالدي؟

-الشيخ عبد التواب: نعم ياولدي، وإنه ليسعدني أن يكون لي ابن مع بقية الأبناء الأعزاء.

-ساخط: هذا يعني أن لديك عدداً من الأولاد؟

-الشيخ: جميع من في السجن ممن هم في سنك هم أبنائي.

-ساخط: أقصد أبناءك، أبناءك من صلبك.

-الشيخ: إيه ياولدي، فقد فقدت ولدي الوحيد، وعوضني الله عنه بكم جميعاً، فأنتم أولادي.

Marfat.com

-ساخط: آسف ياوالدي، فإني لا أعلم عن هذا الأمر، وأكرر أسفي، لأني أثرت في كوامنك ذكريات قديمة قد مضت بآلامها.

-الشيخ: لا ياولدي، لا تقلق، فالله المعطي، والله الآخذ، فلم تحرك شيئاً، لأنـي سلمت نفسي لله، ورضيت بقضاء الله، والحمد لله، وأنا دائم التفكر في ذنبي الذي ارتكبته، أسأل الله ﷻ أن يمحوه، ويثبت كل ما هو فيه خير لي في الدارين.

-ساخط: ياوالدي، ما أجملها من كلمه، لقد فقدتها منذ وفاة أبي!

-الشيخ: أكثر من الدعاء له، فَيُسر في قبره، فقد ويصله دعاؤك، فعندما يموت ابن آدم ينقطع عنه كل شيء إلامن ثلاث ينْتفع بها: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو لـه، فأكثر من الدعاء، يكن لوالديك الحـظ الوفـير مـن الخـير، ولن تحرم الأجر على الدعاء، واعلم أن الله لطيف بعباده، لذلـك عليـك بالدعـاء، والطلب من الله-عز وجل-اللطف، وقل كما قال الشاعر رحمه الله-:

عَسَى مِنْ خَفِيِّ اللُّطفِ سُبْحَانَهُ لُطْفُ ... بِعَطْفَةِ برٍّ فالْكَرِيْمُ لَهُ عَطْـــــــفُ

عَسَى مِنْ لَطِيْفِ الصُّنْعِ نَظْرَةُ رَحْمَـــةٍ ... إلى مَنْ جْفَاه الأهْلُ والصَّحَبُ والإلـف

عَسَى فَرَجٌ يأتِي بِهِ اللهُ عَاجِـــــلاً ... يُسَرُّ بِهِ المَلْهُوفُ إن عَمَّهُ اللَّهْـــــفُ

عَسَى لِغَرِيْبِ الدَّار تَدْبِيْرُ رأفـــــةٍ ... وَبِرٌّ مِنَ الْباريْ إذاالعيش لم يصـــف

عَسَى نَفْحَةٌ فَرْدِيَّةٌ صَمَدِيَّـــــــةٌ ... بها تَنْقَضِيْ الحاجَاتُ والشَّمْلُ يَلْتَـفُّ

فَإنِّيْ والشَّكْوَى إلَى الله كَالَّـــــذِيْ ... رَمَى نَفْسَهُ فِيْ لُجَّةٍ مَوْجُهَا يَطْفُـــو

Marfat.com

-ساخط: أريد أن أكمل لك ما سبق أن حدثتك به، لتجيبني بصدق هل لي من توبة؟

-الشيخ: جزاك الله خيراً ياولدي، فقد نصحتني أن أجيبك بصدق، وأحمد الله أنني منذ أن هداني الله لم يلفظ لساني كذبة واحدة، ولم تمتد يدي لأي عمل يغضب الله، ولم تسر رجلي لأي مكان حرمه الله، ولم يدخل جوفي من الحرام شيء، فقد عملت جهدي، ولكن العلم عند الله، فأساله التوبة عما أعلم ومما لا أعلم.

ساخط: التوبة، التوبة، التوبة، عبارات تكررها باستمرار، كأنك قد ارتكبت إثماً عظيماً، رغم أن حالك ومظهرك أنك من عباد الله الصالحين.

الشيخ: أسأل الله أن أكون كذلك وخيراً من ذلك، نعم ياولدي، فقد ارتكبت إثماً عظيماً ولولا أن قرأت في كتاب الله: أن على المسلم آن لا يقنط من رحمة الله، لكان مصيري الموت خوفاً، أو لعملت عمل الرجل الذي كان عليه من الذنوب الشيء الكثير، فطلب من أولاده عند وفاته أن يحرقوه، ويفرقوه في البحر خجلاً من الله فيقال، إن الخالق أمر بجمع رماد رفاته، وقال له: ما الذي دفعك لتعمل ما تعمل؟ قال: يارب خجلا وخوفا منك، فغفر له وأدخله في رحمته. ولكن نحن أمة محمد ﷺ لم يبخل علينا، بل حثنا على العودة والرجوع إليه، والآيات التي تدل على ذلك كثيرة. وأنا

Marfat.com

ياولدي ولدت في بيت علم، وقد أكرمني الله بالعلم، فكنت واعظاً في قريتي، وكنت معلماً للناس، وعندما لم أستطع أن أملك زمام أمري وفقدت من شدة الغضب التصرف الرشيد وارتكبت ما أغضب ربي، فكان من عدله أن قدر لي السجن في هذه الدنيا، وأسأله أن يكون لي كفارة من كافة الذنوب. ثم أخذ الشيخ يردد قول:

أقِمْ شَاهِدَ التَّقْصِيْرِ مِنْكَ مَعَ الضَعْفِ ... عَسَى وَاسِعُ الألْطَافِ يُدْرك بِاللُّطْفِ
وَقِفْ فِيْ مَقَامِ الذُّلِّ وَقْفَةَ نَادِمٍ ... فَمَا قَدْ مَضَى فِيْ العُمْرِ مِنْ غَفْلَةٍ يَكْفِيْ
أجِبْ دَاعِيَ المَوْلى فَهَذا كِتَابُهُ ... يُنَادِيْكَ فَاسْرِعْ بالإجَابَةِ وأستَعْفِ
أمَا آنَ لِلْعَاصِي الرُّجُوْعُ لِرَبِّهِ ... أَلَمْ يَدْرِ أنَّ الذَّنْبَ يُكْتَبُ فِي الصُّحُفِ
رُوَيْدًا أخَا العِصْيَانِ إنَّكَ قَادِمٌ ... عَلَى اللهِ وَهُوَ اللهُ يَعْلَمُ مَا تُخْفِي
أفِقْ وانْتَبِهْ فَالخَطْبُ صَعبٌ وَأمْرُهُ ... مَرِيْرٌ وَشَأنُ الذَّنْبِ يُوقِعُ فِيْ الحَتْفِ
ظَلَمْتَ وَمَا إلاَّ لِنَفْسِكَ يَا فَتَى ... ظَلَمْتَ وَظُلْمُ النَّفْسِ مِنْ أقْبَحِ الْوَصْفِ
تَمَادَيْتَ حَتَّى زَلَّكَ الرُّشْدُ فَانْتَبِهْ ... وَسَلْ غَافِرَ الزَّلاَّتِ يُدْرِكْ بالعَطْفِ
أيَا مَنْ بِقَيْدِ الجَهْلِ أضْحَى مُكَبَّلاً ... أَلَمْ تَدْرِ أنَّ الجَهْلَ يُلْجِيْ إلَى الْخَسْفِ
إلَى الْعِلْمِ فَاهْرَعْ وَاتَّخِذْ لَكَ مَسْلَكاً ... مِنَ الرُّشْدِ يَهْدِيْ بَعْدَ ذَلِك لِلْكَشْفِ
وَلاَتَكُ مِمَّنْ قَيَّدَتْهُ حُظُوْظُهُ ... فَيَعْبُدَ رَبَّ الْعَالِمِيْنَ عَلَى حَرْفِ
نَصَحْتُكَ فَاسْمَعْنِيْ وَقَابِلْ نَصِيْحَتِيْ ... بِصِدْقٍ فَإنِّيْ قَدْ دَعَوْتُكَ لِلْعُرْفِ
وَلَسْتُ بِنُصْحِيْ قَاصِدًا غَيْرَ عَاكِفٍ ... عَلَى الذَّنْبِ مِثْلِيْ وَصْفُهُ فِيْ الْعَمَى وَصِفِيْ
بُلِيْتُ بِكَسْبِ الذَّنْبِ والإثْمِ عَامِدًا ... عَسَى غَافِرُ الزَّلاَّتِ مِنْ ذَا الْبَلاَ يَشْفِيْ

Marfat.com

-ساخط: سوف أخبرك ياشيخ بتكملة قصتي، لكي تجد لي حلاً وتخبرني هل لي من توبة؟

الشيخ: ياولدي، ألم تسمع بقصة مرور بعض الصالحين على راعي غنم، فوجد الذئاب ترعى مع الغنم تحرسها ولا تأكلها، وهي ماكثة معها، فالتفت الرجل الصالح، وقال للراعي: متى اصطلح الذئاب مع الغنم؟ فأجابه الراعي جواب الفطرة، فقال: لما اصطلح الراعي مع الله، أي ياولدي إن أقبلت على الله واصطلحت معه، وسوف تصلح لك بقية الأمور، فإنه سبحانه لا يبخل على عبد من عبيده، وهو الرزاق سبحانه لجميع خلقه، فقد رزق الحية وهي عمياء ياولدي.

-ساخط: ماذا تقصد ياشيخ (عبد التواب)؟ أو دعني أقل ياوالدي الحبيب.

-الشيخ: أقصد ياولدي الحبيب أن بعض الصالحين قال:

كنت أقطع الطريق، فرأيت نخلتين، إحداهما رطبة عليها رطب، والأخرى يابسة، ورأيت طيراً يأخذ الرطب ويضعه في رأس اليابسة، فصعدت إليها، فرأيت حية عمياء وطيراً يأخذ الرطب ويأتي ويضعه في فمها، فقلت: يارب هذه حية، أمر النبي ﷺ بقتلها، أقمت لها طيراً يأخذ، الرطب ويأتي إليها برزقها، وأنا أشهد لك بالوحدانية، ثم أقمتني في قطع الطريق؟ فهتف بي هاتف يقول: بابي مفتوح للقاصدين، فكسرت سيفي، وقلت: التوبة، التوبة. فقال الهاتف: قد قبلناك. وكنت قد انفردت عن أصحابي، فسمعوني

Marfat.com

أقول: التوبة، التوبة فلما جئتهم، سألوا عـن ذلـك، فقلـت: كنـت مطـروداً، فوقع الصلح، فقالوا: ونحن نصالح معك أيضـاً، فنزعنـا ثيابنـا، وخرجنـا إلى مكة، فدخلنا قرية وإذا بعجوز تقول: أفيكم فلان الكردي، فقلـت: هـو أنـا، فـأخرجت ثيابـاً وقـالت: هـذه ثيـاب ولـدي أردت أن أتصـدق بـها، فرأيـت النبيﷺ في المنام، وقال: أعط هذه الثياب لفلان الكردي. وبهذا يتضح ياولدي أنه إذا وقع الصلح مع الله، حصل القبول.

-ساخط: لقد كنت مضطراً ياوالدي بارتكاب الذنوب.

الشيخ: ياولدي، الشيطان والنفس والهوى هم الأعداء، وفي مخالفتهم راحة.

-ساخط: قلت لك ياوالدي: إنه بعد خروجي هائماً جائعاً خائفاً كنت أتوسـد الأرض، وألتحف السماء، وجاء في ذهني أن أعمل أي عمل، فالمدرسـة مقفلـة في هذا الوقت من العام، وحاولت ما استطعت، فكان الجـواب: لا عمـل، إلى أن وجدت مطبخاً، وافق على أن أقوم بالخدمة وجلـي الصحـون مقـابل قـوت يومي، وأنه متفضل علي، لأنه لا يوجد معي ما يثبت هويتي.

مكثت على هذا الوضع شهرين، ثم ذهبـت إلى المدرسـة، وطلبـت مـن مدير المدرسة أن آخذ ملفي، فأخبرني أنه لا يمكن سحب الملـف إلا مـن قبـل ولي الأمر وهو عمي، فأخبرته بقصة عمي وغيابه المفاجئ، فصـاح في وجـهي: اخرج يامجرم أخرج يامجرم، فإن البلدة كلها تتكلم عن عمك بائع المخـدرات الذي هرب والشرطة مستمرة في مطاردته! وكانت كلمته مفاجأة كادت تقتلـني

Marfat.com

إلا أني أسكت نفسي، وقلت لـه مقاطعاً: ما ذنبي؟ أريد الملـف أو صورة مـن هويتي.

ظل المدير يكيل لي سيلاً من الشتائم، وطلـب مـني مغـادرة المدرسـة في الحال قبل أن يدعو الشرطة لإخراجي من المدرسـة، فـإن المدرسـة بـها قرابـة ألف طالب، ووجود طالب مثلي فيها سوف يكون خطراً علىٰ المدرسة.

توقفت ياشيخ، وتصلبت عروقـي، وأردت أن أصـرخ في وجهـه إلا أن الكلمات احتبست في حنجرتي وقررت أن أغادر المدرسة، ورجعت إلى عملي، فوجدت صاحب المحل مقيم الدنيا ومقعدها، وأقبل عليَّ قائلاً أين كنت؟

قلت لـه: قد ذهبت إلى المدرسة للحصول على صورة من هويتي.

قال: تترك المحل وقت الإفطار والناس كثر؟ حسناً أين هويتك؟

قلت لـه: رفض مدير المدرسة أن يعطيني صورة من هويتي.

-قال لي: ولماذا رفض أن يعطيك؟

فأخبرته أن المدير طلب أن أحضر وليَّ أمري.

فكان سؤاله: لمـاذا لم أحضـر وليَّ أمـري؟ وليتـه لم يسـأل، وليتـني لم أذهب إلى المدرسة لأنه جعلـني أقـول لـه لأنـه غـادر، وأن المديـر لم يعطـني الملف، وأنه طردني من المدرسة، لأنه كما يقول: إن عمي بائع مخدرات، ولم أكمل الحديث إلا وصاحب المطعـم هـبَّ قائمـاً وأخـذ الطبـق الـذي في يـدي، وأمرني بأن أغادر المكان في الحال، فعمِّي تاجر مخدرات، وحـاولت أن أقـول

Marfat.com

له: ما ذنبي؟ ولكن دون فائدة، فقد أصرَّ على طردي، ورجعت مرة أخرى إلى الطريق، وبعد أيام عصيبة ومرارة لا أزال أشعر بها كلما تذكرت تلك الأيام، وأنا أعتصر من الجوع والعطش، ولا أجد من يمد لي يد العون والمساعدة! ما ذنبي إن كان عمي أو قريب لي قد ارتكب محرماً؟ حاولت أن أفكر أن أرجع إلى القرية التي كنت بها، ولكن ليس لدي ما ينقلني إلى ذلك المكان، فأصبحت دون دار، وبدون تعليم وبدون هوية!

ومكثت ألتقط بقايا الطعام من صناديق المخلفات، أحاول جاهداً أن أنظف بعض البقايا وآكلها، وكنت أستحي أن أظهر في النهار، فكنت أنام في النهار، وأخرج في الليل، وبدأت أفكر في العودة للمدرسة، كي أسرق منها هويتي، لعلي أعرف أن أجد لنفسي عملاً بعد أن راجعت جميع الأماكن الحكومية، فالكلهم يريد شهادة وهوية.

وفي إحدى الليالي وأنا داخل إحدى صناديق النفايات لأخرج بعض كسر الخبز وأحاول تنظيفها، سمعت صوت صفير طويل، ولا أعلم لماذا خفت من هذا الصفير؟ فحاولت أن أكتم أنفاسي، ولا أتحرك ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وبعد دقائق سمعت صفيراً بصوت مختلف، ثم سمعت صوتاً مماثلاً لنباح الكلب ثلاث مرات، تبعتها ثلاثة أصوات موسيقية، وأنا كامن في مكمني، ولديَّ شعور داخلي أن شيئاً خطراً حولي، لا أعلم ما هو! ولكن شعوري القوي زاد من خوفي من الخطر. وفجأة قفزت قطة في صندوق

Marfat.com

النفايات، وكان سقوطها على رأسي، وتمكنت مخالبها منه، فشعرت بألم شديد، جعلني أصرخ من شدة الألم!

هربت القطة مع حركتي، لكن سمعت صوت رجل يقول لزميله: ابحث جيداً كأن أحداً يراقبنا، واستمر البحث، إلى أن وصلوا إلى قرب صندوق النفايات، وأحدهم يقول: إن الصوت قريب من هذه المنطقة، والآخر يقول نعم، ولكن لا يوجد أحد، قد نكون واهمين! وبعد فترة من الزمن انقطع الصوت، وعزمت على الخروج من الصندوق، كي أذهب إلى مكان آخر، أشعر فيه بالأمان ثم فوجئت بيدين غليظتين تنقضَّان على عنقي، وتقول: قد أمسكت به! قد أمسكت به! وأردت أن أصرخ فعاجلني بضربه قوية على رأس أفقدتني الوعي، ولم أفِق إلا في مكان فسيح مليء بالورود والروائح الجميلة، ظننت نفسي أني في حلم.

لم أشعر أن الأمر واقع إلا عندما نظرت إلى يدي، فوجدت آثار الدماء، فتحسست رأسي، فلم أستطع أن أضع يدي عليه من شدة الألم، رجع الخوف إلى قلبي! وأردت الهروب، وبمجرد أن تحركت مترين، لاحظت ثلاثة كلاب ضخمة، كلما أتحرك، تزمجر، وكان المكان محاطاً بشجيرات الورد المليئة بالشوك، التي لا تسمح لأحد بالعبور من خلالها، فقد زرعت بطريقة عجيبة ولا يوجد منفذ إلا من خلال الفتحة التي يوجد بها الكلاب،

Marfat.com

أخذت أفكر في طريقة للهروب، ومحاولة إشغال الكلاب بأمر يصرفـها عـني، فحاولت جاهداً ولم أفلح في الوصول إلى الحل.

وفي أثناء التفكير أقبل رجـل طويـل، نحيـل، شـديد السمرة، أجعـد الرأس، صغير العينين، ظهر لي كأنه شيطان في صورة إنسان، تظهر عليه القوة رغم جسمه النحيل، ويظهر عليه الشر رغـم أنـه يتصنـع بسـمة خفيـة، تمـلأ وجهه النحيل، مر من خلال الكلاب دون أن تصنـع لـه شـيئاً، بـل أقبلـت خلفه ذليلة، تهز ذيلها، صفق فجأة، فركضت الكلاب نحـوي، وكـل واحـد منهم أخذ بقسم من جسدي دون أن يؤلمني، وتقدم الرجل، وقـال: مَنِ الـذي بعثك لكي تتجسس علينا؟ وماذا سمعت؟ أقسمت لـه أنني لم أتجسس لأحد، وأنا هناك فقط كي ألتقط غذائي من صناديق المخلفات، ضحـك وقـال: بتَـهكُّمْ إن لم تصدقني جعلتك غذاء للكلاب، وصفق مرتين، وإذا بالكلاب تجثم علـى جسدي، وتغرس أنيابها في لحمي، وهو يقول: أخبرني الصدق قبل أن تذهب حياتك، فأخذت أبكي بحرقة خوفاً على حياتي، وصرت أطلب العفو، وأقسم أنني لا أعرف عن التجسس شيئاً، وأنني فقير، وانتابني نوع من الهسـتيريا! جعلني أقول: ماذا عملت في دنياي؟ أمي تموت: وأبي يمـوت، وعمـي تـاجر مخدرات، والمدير يطردني، لأن عمي قُبض عليه، وصاحب العمـل يرفـض أن أحصل على قوت يومي خوفاً من عمي، أنا طريد، أنا وحيد، أنا فريـد ، أنـا

Marfat.com

شريد ماذا بك؟ هل قلبك من حديد؟ ماذا تريد؟ ماذا تريد! فقد أقسمت لك، وحلفت لك.

سكت الرجل، وقال لي بعد قليل: ما اسمك؟ قلتُ له: أرجوك أن تجعل الكلاب تبتعد عني، ضحك ضحكة قوية، وقال: ما الفرق بينك وبينها، أنت ساخط، وهي ساخطة، ولكن سخطك لا يضرها، ولا تفهمه، أما سخطها فيمكن أن يمزقك إرباً، إرباً، ها، ها، ها، وأشار بيده للكلاب، فابتعدتْ قليلا.

قلت له: اسمي راضي بن عبد الله، فضحك وقال: لا تكذب أنت ساخط وليس راضي، قلت له: ساخط راضي لا يهمني، أنا جائع وأريد أن أخرج قال لي: تخرج إلى أين؟ قلت: لكي أجد طعامي: قال: إن كان طعامك كما قلت، فسوف تجد عندنا أفضل مما تجده في صناديق المخلفات، إنك لا تريد أن تخبرني بالصدق! وأخذت أبكي وأكرر الكلام السابق حتى أشفق عليَّ من شدة البكاء، وقال: يا (ساخط) سوف أتركك تفكر، والحذر الحذر من الهرب، وحاولْ أن تقول الصدق قبل أن أجعل الكلاب تمزق بدنك، ورجع من المكان الذي دخل منه، ورجعت معه الكلاب إلى أماكنها السابقة.

وتعطلت قواي العقلية وشل تفكيري وازداد صوت الشهيق والزفير، وأخذت أبكي بحرقه، ولم أشعر إلا وكف الشيخ (عبد التواب) تمسح دموعي وهو يقول يكفي ياولدي، يكفي ياولدي، فقد تعبت من البكاء واكتشفت أنني

Marfat.com

أبكي بحرقة مثل المرة السابقة، وقاطعت الشيخ وقلت: أريد أن أتكلم أريد أن أخرج ما في نفسي، هل مللت من صحبتي وأنت الذي يقال عنك أنيس المساجين؟

-الشيخ: لا ياولدي بل أشفقت عليك من حديث الذكريات المؤلمة.

-(ساخط): لا ياشيخ قلت لك أريد أن أتحدث لكي تخبرني هل لي من توبة؟

الشيخ: كما قلت لك ياولدي إن الله تواب، وهو الجواد الكريم، وكل ما عليك أن تحسن الظن، وتقلع عن المعصية، وتعزم على أن لا ترجع إلى المعصية وأن لا تكون مثل من قال في حقه الشاعر: (المعيري، د.ت. ١٤٢/١).

تتوب من الذنوب إذا مرضتا وترجع للذنوب إذا برئتا

إذا ما الضرُّ مسَّك أنت باكٍ وأخبث ما تكون إذا قويتا

فكم من كربة نجاك منها وكم كُشف البلايا إذا بُليتا

وكم غطاك في ذنب وعنه مدى الأيام جهراً قد نهيتا

أما تخشى بأن تأتي المنايا وأنت علىٰ الخطايا قد دهيتا

وتنسى فضل رب جاد لطفا عليك ولا ارعويت ولا خشيتا

وكم عاهدت ثم نقضت عهداً وأنت لكل معروف نسيتا

فدارك قبل نقلك عن ديارك إلى قبر إليه قد نُعيتاً

Marfat.com

-قاطع (ساخط) الشيخ، وقال: ياشيخ، أنا أريد التوبة، ويكفي موت محسن واعظاً، فقد وعظني أكثر من أي شيء، كن بي رحيماً ياوالدي.

ربت الشيخ (عبد التواب) على ظهره، وقال له: حسناً، حسناً ياولدي.

-قال ساخط: وظللت في ذلك المكان ثلاثة، أيام وأنا في أشد الجوع والعطش، لا أجد ما آكل إلا بعد أن يعطي الرجل الطويل الكلاب الأكل، ثم يقذف بالباقي، ويقول: خذ إنه أجود مما كنت تأكل، وفي الحقيقة ياشيخ إن طعام الكلاب كان أفضل بكثير من الأطعمة التي كنت أحصل عليها، والرجل في كل يوم يحاول معي، كي أعترف بأني كنت أتجسس، إلى أن وصل إلى قناعة أنه لا فائدة من وجودي، فقرر التخلص مني وقتلي، وأمر الكلاب بالهجوم عليَّ، فأقبلت تمزق أقدامي، انظر ياشيخ (عبد التواب) ويا أخي (صادق) إلى آثار أنيابهم ما زالت حتى اليوم، وأخذ الكلاب يسحبون رجليَّ، وهو يضحك ويشير إليهم بإشارات لا أفهمها، واستمرت الكلاب تسحب جسدي إلى أن وصلت إلى حوض للسباحة، فقذفتني في ماء بارد! كدت أن أموت منه وأخذت أرجف من شدة البرد وهو يضحك، إلى أن أطلَّ من النافذة رجل في الخمسين من عمره ولم أتمالك نفسي من الصراخ عند مشاهدته إنه، إنه، إنه واحتبس الكلام، إنه عمي: وعندما نظر إليَّ أقبل مسرعاً وقال: راضي! راضي! وأخرجني من الحوض والرجل الآخر يقول له: هل تعرفه؟

Marfat.com

-قال عمي: نعم، إنه ابن أخي.

-قال لـه الرجل الطويل: وهل يعرف أمرنا؟

-قال عمي: لا يعرف شيئاً، وأخرجني عمي وأخذ بيدي.

-فقال لـه الرجل الطويل: أتركه، فقد أمر الرئيس بقتله إن لم يعترف بتجسسه ولحساب من؟ وأشار إلى عمي، فتركني عمي وذهب، فعاد الرجل الطويل يشير إلى الكلاب، وهربت منها، وسقطت مرة ثانية في الماء، وبعد فترة أقبل رجل بدين، قصير، دميم، شكله لئيم، وأقبل نحوي، وأخرجني، ثم أشار بيده إلى الرجل الطويل الذي أقبل، وقال: نعم يا سيدي.

-قال الرجل: ماذا وصلت معه؟ فأخذ يقص القصة وكيف أنني لم اعترف بشيء وحدث الرجل بكل ما قلت، ثم قال لـه: ما اسمه؟

-قال الرجل الطويل: يقول إنه راضي، ولكن كما قلتَ لـه إنه ساخط! -قال الرجل البدين: إذًا فالشاب قد صدقك أن اسمه راضي.

أخرجني الرجل، وقال اتبعني، فتبعته إلى قصر كبير، جمع به عدداً كبيراً من الخدم، ودخلت القصر، فوجدت عمي جالساً على مكتب، وقد هبَّ واقفاً عندما قدِمَ البدين، وقال لـه: أرجوك أن لا تقتله، فهو الوحيد الباقي من أهلي، أرجوك، أرجوك يا ، ولم يكمل كلامه، فقد أطلقني الرجل، وذهبت إلى حضن عمي وأنا في أشد الجوع والخوف والبرد، احتضنني عمي، وأخذني إلى غرفته، وأخذ يبكي ويقول: رحم الله أباك، فقد نصحني ولم

Marfat.com

أنتصح، وحذرني من طريق الـــمعصية، ولم أرتـدع وكتـب لي خطابـاً، لا أزال أحمله، وأخـرج الكتاب، ودموعه تنساب، وهو يقـول رحمـك الله يـا أخـي، وأخذ يكرر ما في الخطاب، ثم أعطاني هذا الخطاب إنه خطـاب، أبـي الـذي كنت دائماً أحمله ولم أرد أن أقرأ ما فيه ويدخل (ساخط) يده في جيبه ويخرج ورقة مكتوب فيها: (المعيري، د.ت. ١٤٩).

فيا من بات يخلو بالـمعاصـي وعين الله شاهدة تـــــــراه
أما تخشى من الديان طـــرداً وتُحَرمُ دائماً أبداً نـــــداه
تبارز بالمعاصي منك مولـــى على جهل يراك و لا تـــراه
أتعصي الله و هو يـــراك دانٍ إليك و ليس تخشى من سطاه
وتنكر فعلها و له شهـــــود بمكتوب عليك و قد حـــواه
فويل العبد من صحف و فيها مساويه إذا وافى مـــــساه
و يا حزن المسيء بشؤم ذنـب و بعد الحزن يكفيه جـــزاه
و يندم حسرة من بعد فـــوت و يبكي حين لا يجدي بكـاه
يعضُّ يديه من ندم و حـــزن و يندب حسرة ما قد عـــراه

-**وتوقف (ساخط) وهو يقول:** قد قررت عدم قـراءة أي شـيء يذكـر بـالآخرة لأن (قارون) قد أخبرني أنني مهما عملت فما قدَّره الله كائن، وأن الله قـدر لي أن أكون بائعاً للمخدرات، فكيف أخـالف مـا قـدره الله؟ ولكـن بعـد توضيـح الشيخ (عبد التواب) ظهر لي أن الله يتوب على من تاب. ثم بعـد أن أعطـاني عمي الورقة أخذ يبكي ويقول:

Marfat.com

فيا من بات يخلو بالمعاصي وعين الله شاهدة تـــراه

وقـد خجلـت مـن ربـي، وأردت أن أتبـع نصيحـة أخـي، إلا أن (قارون) المجنون أخذ يتابعني إلى أن عدت مرة أخـرى إلى طريـق الغوايـة بعدمـا فقـدت زوجـتي وابنـتي، ولم يبـق لي في الحيـاة إلا أنـت، وقطـع حديثهم دخول قارون وهو يضحك بشدة وبصوت عالٍ جداً، ويقـول: وقـد صدقت في كل ما قلت يا (ساخط) قلت لـه: اسمـي (راضـي). قـال: لـن يكون لك إلا هذا الاسم وإذا لفظت (راضي) على شفتيك بعد اليوم، يكـون فمصيرك القتل، وقدم لي أوراقا عرفت فيما بعـد أنـها مـزورة وهـي تحمـل اسم (ساخط) بن مسخط وظللت إلى الآن وأنا أتعامل مع هذا الاسـم إلى أن ذكرتني به ياشيخ عبد التواب.

Marfat.com

-قال الشيخ: سوف تكون راضياً، وإن شاء الله تكسب رضى الخالق، فتكون مرضياً عنك من الله، وقد كان محسن-رحمه الله-مرتكبا من الأمور العظام أكثر منك، وكان لا يوجد أحد في السجن إلا ويخاف من شره، وأذكر أنني قلت في إحدى الأيام: (المعيري، د.ت: ١/١٥٣).

متى يا شقي الحظ تأتي بتوبة وعمرك في الدنيا يساق به ركضا
فلا بد بعد الموت أن تسكن البلى ويرضك ثقل الأرض تحت الثرى رضا
وتعطى كتاباً فيه كل فضيحة وتشهد أهوال القيامة والعرضا
فقم في الدجا ليلا لربك طائعاً لعل الذي يسخط عليك عسى يرضا

فمدَّ يده، وكاد أن يقتلني لولا كرم الله ثم وجود (همام) الذي دافع عني، ومنع (محسنا) من الوصول إليَّ، وبعد أحداث كثيرة تغير محسن، وقد عرفت أنه قبل أيام أكرم الله (محسنا) بكرامة الصالحين، ونال من الله الخير الوفير، وانتقل إلى خالقه، وأرجو أن ينطبق عليه قول الشاعر: (المعيري، د.ت: ١/١٥٧).

نالوا بذلك فرحة وسرورا وسعوا فأصبح سعيهم مشكورا
قوم أقاموا للإله نفوسهم فكسا وجوههم الوسيمة نورا
تركوا النعيم وطلقوا لذاتهم زهدًا فعوضهم بذاك سروراً
قاموا يناجون الحبيب بأدمع تجري فتحكي لؤلؤاً منثوراً

Marfat.com

ستروا وجوههم بأستار الدجى ليلاً فأضحت في النهار بـــدوراً
عملوا بما علموا وجادوا بالـذي وجدوا فأصبح حظهم موفــوراً
وإذا بدى ليل سمعت أنينهـم وشهدت وجداً منهم وزفـــيراً
تعبوا قليلاً في رضا محبوبهـم . فأراحهم يوم المعاد كثيـــراً

صبروا على مر البلا فجزاهـم . يوم القيامة جنة وحريـــــراً

رحمه الله، وأرجـو أن ينيلـك الله، ويطعمـك مـا أطعـم محسـناً، فقـد منحه الرضا، فكان راضياً قانعاً بكل ما أعطاه الله،-رحمه الله-وأسكنه فسيح جناته.

-(ساخط): أرجوا الله أن ينيلي التوبة ياوالدي.

-(الشيخ)عبد التواب: ارجع إلىّ اسمك الحقيقي من هــذا اليـوم، لعـل الله أن يجعل لك من اسمك نصيباً. وكرَّر مــا قالـه الشـيخ (التـبر): اللـهم أرحـني في شؤوني كلها برَوْح الرضا ونعيم التسليم، يا ألله، يابرُّ يارحيم. كرر هذا الدعـاء ياولدي.

-(ساخط): أريد أن أعترف لك بجرائمي وآثامي، كي تخبرني هل من توبة؟

(الشيخ): قلت لك كرر الدعاء السابق، اللــهم أرحـني في شـؤوني كلـها بـروح الرضا ونعيم التسليم، يا الله، يابرُّ، يارحيم. وحسبك يا ابني، فإن الله ستار، فمن أكرمــك بالسـتر في الدنيـا لعلـه يسـترك في الآخـرة، يـاولدي دينـك دين الإسلام، ليس فيه اعتراف إلا للخالق سبحانه وتعالى أو لشهادة حق أو لدفـع

Marfat.com

ظلم ومساعدة رجال الأمن في الوصول إلى جذور الجريمة، فكل مسلم يجب عليه أن يحافظ على أمن الوطن، ويسعى لاستتباب الأمن ومنع الجريمة، فالمسلم للمسلم مثل البنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، فإن أردت بداية التوبة، حاول مع ضابط السجن أن تخبره بكل ما تعرف عن الجريمة والمجرمين، وحاول ما استطعت أن تدلهم على الطرق التي تنقذ أجيال المستقبل وشباب الأمة من براثن المجرمين، ولك الأجر الوفير من الخالق جل وعلا.

-ساخط: ياوالدي، هل لك أن تخبرني عن مفهوم التوبة وتفصله لي وتوضحه لكي أعرف الحق وأتبعه عن علم؟

(الشيخ): حسناً ياولدي؟ (التوبة) من (التواب)، والتواب هو الله سبحانه وتعالى لأنه سبحانه وتعالى، يعود على عباده بألطافه، ويوفقهم، وييسر لهم القيام بالتوبة، وقد أخبر سبحانه عن نفسه أنه شمل عباده برحمته، وتاب عليهم ليتوبوا، واعلم ياولدي: أن التوفيق إلى التوبة يعود لكرم وفضل ومنَّةٍ منه سبحانه وتعالى، فهو الميسر للتوبة، فما أكرمه سبحانه: لأنه قابل الدعاء بالعطاء، والاعتذار بالاغتفار، والإنابة بالإجابة، والتوبة بغفران الحوبة، وقد ذكر اسمه (التوّاب) في كلامه الكريم، في القرآن العظيم، في أحد عشر موضعاً، في سور متعددة (الشرباصي، ١٤٠٢هـ: ١/٢٨٦-٢٨٧).

-(ساخط): أقول ياشيخ عبد التواب، أو ياوالدي، يقول لك ابنك (ساخط) هل تتفضل وتذكر لنا هذه الآيات وتوضحها لنا.

Marfat.com

–الشيخ: أقسمت عليك أن لا تذكر (ساخط) أمامي، وأريد أن أرى الرضا حولك، فأنت (راضي) ياولدي، حباً وكرامة سوف أخبرك باختصار ببعض الأمور المتعلقة بهذا الاسم الكريم.

فقد قال سبحانه في الموضع الأول: (فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (سورة البقرة: ٣٧). هذه الآية الكريمة ياولدي تدل على أن أبا البشر آدم عليه السلام قد تلقى من خالقه كلمات فقبلها، وعمل بها، وقالها، واعترف بذنبه، وتنصل من ظلمه، نادماً على ماسلف منه من خلاف لأمر خالقه، فتاب الله عليه عندما لقنه التوبة فقال: (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (سورة الأعراف :٢٣). قال هذا الدعاء أبونا الكريم عليه السلام وهو تائب من ظلمه، فرزقه الله التوبة، وهي الرجوع إلى طاعة الله، وهي تؤكد لهذه الأمة أن الله هو التواب على من تاب، (أي عاد إليه) من عباده المذنبين، وأنه سبحانه ترك بفضله وكرمه مجازاته على ما سلف من ذنبه برجوعه وتوبته وعمل ما يرضي خالقه وترك ما يسخطه من الأمور، وتوبة الله على عبده بأن يؤوب سبحانه وتعالى من غضبه على عبده إلى الرضا عنه، ومن العقوبة إلى الصفح عنه.

ثم انظر ياولدي إلى نهاية الآية حيث قال سبحانه: (إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (سورة البقرة : ٣٧) أي أنه الرحيم بكونه المتفضل على عبده مع التوبة بالرحمة ورحمته لعبده بإقالة عثراته وصفحه عن عقوبة جرمه، فانظر ياولدي

Marfat.com

الكريم إلى فضله ومنته، فأقبل عليه بتوبة يقبل عليك بالرحمة والغفران (الطبري، ١٤٠٥هـ: ١/٢٤٥-٢٤٦).

-(راضي): الاسم الصحيح الذي كان له قبل (ساخط): هل هذا يعني أن رحمة الله تدرك جميع العاصين بقبول التوبة مهما بلغت المعصية؟

-الشيخ: نعم ياولدي، فرحمة الله لا حدَّ لها، ولذلك يتوب على عباده المذنبين، ولعلك إذا استمعت للآية الثانية التي ذكرت فيها التوبة واسم التواب، توضح لك ذلك، حيث قال سبحانه: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)(سورة البقرة: ٥٤).

هذه ياولدي الآية الثانية التي ذكر فيها اسم التواب، وهي مثل السابقة ملتصقة بصفة الرحمة، فهو تواب، وهو رحيم سبحانه وتعالى، فلا توجد جريمة أكبر من الشرك، لأنه ظلم من المخلوق لخالقه وجحود لفضل موجده، فكانت توبة قوم موسى عليه السلام من الذنب الذي أتوه فيما بينهم وبين ربهم بعبادتهم العجل، فعندما عاد موسى وذكَّرهم بذلك، ندموا على ماسلف منهم من عبادة العجل، وجاءهم الأمر بقتل أنفسهم، وعندما أطاعوا الله وعملوا ما يرضيه، نجوا من عقاب الله في الآخرة، واستوجبوا الثواب من الله، لأنهم تابوا وأطاعوا، فتاب عليهم، ورجع عليهم بما أحبوا من العفو عن الذنوب والصفح عن الجرم لأنه هو التواب الرحيم، أي الراجع لمن أناب

Marfat.com

إليه بطاعته إلى ما يحب من العفو فهو العائد بعفوه ورحمته المنجية من عقوبته (الطبري، ١٤٠٥هـ: ١/٢٨٧-٢٨٨).

(راضي): هل هذا يعني ياوالدي أن التوبة من العاصين فقط؟

الشيخ: بارك الله فيك يا (راضي) لأنك بسؤالك هذا جعلتني أصل إلى الآية الثالثة التي ذكر فيها اسم التواب، حيث قال سبحانه: (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ). (سورة البقرة: ١٢٨). هذه ياولدي ألفاظ، قالها خالقك على لسان خليل الله سيدنا إبراهيم عليه السلام من كان أمة حنيفاً مسلماً من أولي العزم من الرسل فهو أمة كاملة وضعها الله في رجل. فمواقفه توازي مواقف أمة، فقد وقف كما تعلم موقفاً أمام النمرود صاحب الكفر والجحود الذي ألقى الخليل في النار، فكانت برداً وسلاماً على إبراهيم، هذا النبي الكريم رغم أنه خليل الله إلا أنه يعرف أن العبد مقصر وأنت كما تعلم لا يعلم التقصير إلا المخلص العاقل الكريم، ولا يوجد أحد من البشر أفضل من أنبياء الله، ولا يوجد في الأنبياء أفضل من صفوة البشر نبيك محمد ﷺ.

(راضي): ياوالدي، هذا يعني أن الأنبياء يخطئون ويقصرون؟

الشيخ: ياولدي التأدب مع الأنبياء والرسل واجب، وأريد أن أسألك لو أن مهندس طائرة-على سبيل المثال-جاء لطلاب، وقال لهم اعملوا كذا، ثم عمل الطلاب، فمنهم أصاب، ومنهم أخطأ، فوضح المهندس لكل منهم

Marfat.com

أخطاءه، لكان مقبولاً، لأن لديه العلم بهذا الفن، لكـــن لـو أن الطـلاب أقبلـوا على المهندسين وقالوا إن المهندس فلان مخطئ في كـذا ومخطـئ في كـذا هـل يقبل منه؟.

(راضي): لا ياشيخ، فإنه حمق أن يحكم الإنسان علـى مـن هـو أعلـم منه في فنه وهو دون مرتبته في العلم.

الشـيخ: أحسـنت يـاراضي، لذلـك لا ينبغـــي أن ينســب الخطـأ إلى الأنبياء، ويجب أن يتأدب الإنسان بأدب القرآن. وأن يذكـر مـا ذكـره القـرآن دون زيادة من قبله، لأن بعضـهم فسـر عتـاب الله في بعـض المواقـف لأنبيائـه بالخطأ، واعلم ياولدي أن كل ابن آدم خطاء إلا مـن عصمـه الله فالعـاصم هـو الخالق وحده.

راضي: هل لك ياشيخ أن توضح لي لماذا طلب التوبة إبراهيم عليه السلام؟

الشيخ: ياولدي، إنه ليس أحد من خلق الله إلا ولـه مـن العمـل فيمـا بينه وبين ربه بما يوجب الإنابـة والتوبـة منـه، وإن الخليـل نظـر إلى عملـه، وخشي الغفلات، لأنه لا يرى عمله إلا بعين التقصير، لإدراكـه لعظمـة الـرب الكريم، فعندها رفع هو وابنه إسماعيل-عليهما السـلام-القواعـد مـن البيـت، وهو مكان تحرِّي الدعاء لأن الأماكن الفاضلة عند المقام وعند الكعبة يكثر الفرد فيها الدعاء، فـهي أحـرى الأمـاكن أن يسـتجيب الله فيـها الدعـاء، وكذلـك ليجعلا ما فعلاه سنة يُقتدى بها بعدهما، وتتخـذ النـاس تلـك البقعـة بعدهمـا

Marfat.com

موضع تنصل من الذنوب إلى الله، لأن الله هو العائد على عباده بالفضل والمتفضل عليهم بالعفو والغفران، الرحيم بهم، المنقذ من شاء منهم برحمته، والمنجي من أراد نجاته من عباده برأفته.

-(راضي): فهمت من كلامك أن التوبة تكون من الشرك، وهو أعظم الذنوب، وتكون كذلك من أقل الذنوب التي قد تقع من الإنسان، وهي الأخطاء التي تقع دون قصد وعمد، وأنه في جميع الحالات إن كانت توبته صادقة، كان فضل الله بالعفو والمغفرة!

-الشيخ: نعم ياولدي، لأن التوبة كما اتضح لك من الظلمة بكفرهم ومن الأنبياء أصحاب التقوى ورسل الله لهداية البشرية، وهذا ما أردت أن أوضحه لك من خلال الآية الرابعة التي أوضح الله فيها أنه هو التواب، فقال سبحانه وتعالى: (إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَـئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (سورة البقرة: ١٦٠). هذه الآية الكريمة خطاب لمن يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى، وهم فئة، لديهم العلم، فيكتمونه مثل أهل الكتاب الذين يعرفون رسول الله ﷺ وصفاته من خلال كتبهم، ويعرفون صدق نبوته ورسالته، ومع ذلك يكتمون الحق الذي أنزله الله، لسبب من أسباب الكتمان الكثيرة مما يراه الناس في شتى الأزمنة والأمكنة يسكتون عن الحق وهم يعرفونه، ويكتمون الأقوال التي تظهر الحق وهم على يقين منها، ويجتنبون الحق ولا يظهروه مثل اليهود والنصارى وغيرهم من الأفراد الذين يخفون الحق

Marfat.com

لغرض من أغراض الدنيا، فهذه الفئة تستحق اللعن وهو الطرد، فإذا كان اللعن من الله، فهو طرد من رحمة الله، ويلعنهم اللاعنون من خلق الله، فهم مطرودون من الله ومن عباده إلا الذين تابوا، وهؤلاء يفتح لهم الله في كتابه الكريم النافذة المضيئة، ويعطيهم الأمل، ليقود قلوبهم إلى نور الاستغفار، ويبعدها عن القنوط واليأس من رحمة الله، نعم ياولدي، الرضا بالقدر وعدم القنوط واليأس من رحمة الله أمرٌ هام في حياة المسلم، ينبغي أن يلتزم به، وقد صدق القائل:

يَا نَفْسُ إِنْ لَمْ تَظْفَرِيْ لاَ تَجْزَعِيْ ... وَإِلَى مَوَائِدِ جُوْدِ مَوْلاَكِ اهْرَعِيْ
وَإِذَا تَأَخَّرَ مَطْلَبٌ فَلَرُبَّمَا ... فِيْ ذَلِكَ التَّأْخِيْرِ كُلُّ المَطْمَعِ
فَاسْتَأْنِسِيْ بِالْمَنْعِ وَارْعَيْ حَقَّهُ ... إِنَّ الرِّضَى وَصفُ المُنِيْبِ الأَلْمَعِ
وإِذَا بَدَا مِنْ نَاطِقِ الْوُجْدَانِ مَا ... يَدْعُوْكَ لِلْيَأْسِ الذَّمِيْمِ الأَشْنَعِ
فَاسْتَيْقِظِيْ مِنْ نَومَةِ الغَفَلاَتِ وَلْـ ... يَكُنِ الرَّجَا لَكِ مَرْتَعًا فِيْهِ ارْتَعِيْ
إِن العطا إِمْدادُهُ مُتَنَوِّعٌ ... يَا حُسْنَ هَذَاكَ الْعَطَا المُتَنَوِّعِ
وَرَدُوْا عَلَى نَهْرِ الحَيَاةِ وَكُلُّهُمْ ... شَرِبُوا وَكَمْ فِي الرَّكْبِ مِنْ مُتَضَلِّعِ
حَاشَا الْكَرِيْمُ يَرُدُّهُمْ عَطْشَا وَقَدْ ... وَرَدُوْا وَأَصْلُ الْجُودِ مِنْ ذَا الْمَنْبَعِ
يَا رَبِّ لِيْ ظَنٌّ جَمِيْلٌ وَافِرٌ ... قَدَّمْتُهُ أَمْشِيْ بِهِ يَسْعَى مَعِي
كُلُّ الَّذِيْ يَرْجُوْنَ فَضْلَكَ أُمْطِرُوا ... حَاشَاكَ أَن يَبْقَى هَشِيْمًا مَرْبَعِيْ

وأخذ الشيخ يقول:

يَا رَبِّ لِيْ ظَنٌّ جَمِيْلٌ وَافِرٌ ... قَدَّمْتُهُ أَمْشِيْ بِهِ يَسْعَى مَعِي
كُلُّ الَّذِيْ يَرْجُوْنَ فَضْلَكَ أُمْطِرُوا ... حَاشَاكَ أَن يَبْقَى هَشِيْمًا مَرْبَعِيْ

Marfat.com

ويكـرر البيتـين السـابقين عـدة مـرات، ثـم قـال: نعـم يـاولدي، نعـم ياولدي، كرم الله كبير، كرم الله كبير، وعلى التائب أو العبد الآبــق أن يعـود إلى حمى مولاه صادق النية، وآية صدق التوبة الإصلاح في العمـل، والتبـين في القول، وإعلان الحق، والاعتراف به، والعمل بمقتضاه، ثــم ليثـق برحمـة الله وقبولـه بكرمه لتوبته، فهو أصدق القائلين القائل (وأنا التواب الرحيم) وبذلـك نجد أن القرآن الكريم فتــح للتـائبين نـافذة التوبـة، لتقـود القلـوب إلى مصـدر النور، فلا تيئس من رحمة الله، ولا تقنــط مـن عفـوه، فمـن شـاء فلـيرجع إلى الحمى الآمن صادق النيــة، صـالح العمـل، معلنـاً للحـق، معترفـاً بـه، عـاملاً بمقتضاه، واثقاً برحمة خالقه ومولاه، فبــاب التوبـة مفتـوح لكـل مـن اعـترف بذنبه. أما المصرون الذين لم يتوبوا وماتوا على الكفر وهو أعظم ذنب، فـأولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. ذلك لأنهم أغلقوا على أنفسهم ذلك الباب المفتوح، وتركوا الفرصة تفلت، والمهلة تنقضــي، وأصـروا علـى الكتمـان والكفر والضلال. (قطب، ١٤١٢هـ: ١/١٥٠-١٥١).

هذه الآيات جمعيها ياولدي في سورة البقرة، ويكفي اليوم مـا عرفـت، وإن كـان لك ما يشغلك، فإن غداً لناظره لقريب.

Marfat.com

ذهب ساخط إلى زنزانتــه، وجلس يفكـر في آيـات الله، ورحمـة الله، وكرم الله، وهو بين مصدق لنفسه ومكـذب، هـل هـو هـو؟ أم تغـير، هـل هـو (ساخط) القوي الذي لا يهاب؟ أم هو (راضي) الذي تبكيه آية بعد أن كـان لا يبكيه منظر دماء أمامه، بعد أن كان يقتل في سبيل المال السـريع ويدمـر أسَـراً بالسموم، لا يهمه إلا المال، ورغم ذلــك لم يشـعر بالسـعادة الـتي تمـلأ كيانـه اليوم، حيث نظر إلى السماء في السابق، فلم يشـاهد فيـها إلا السـواد والوهـم، واليوم ينظر إلى زرقة السماء وبريق النجوم ونور القمر فيشعر بجمال الكون وقوة خالقه ومبدعه، أصبح يشعر في صلاة الفجر بشعور غريب، وهو يسـمع زقزقـة العصافير ومرور الهواء العليل، فيلامس وجهه، فيتنفس، وفي كل شهيق وزفير يشعر أنه يدخل الخير إلى داخله، ويخرج بقايا الماضي المريـر، نعـم، المـاضي المرير، الذي لديه الأمـل اليـوم في مسـتقبل سـعيد، وفي جنـة عرضـها عـرض السماوات والأرض، ليس بينه وبينها إلا توبة إلى الله خالصة، كما قال الشيخ عبد التواب.

وأخذ يتذكر بعض القصص التي حكاها الشيخ لـه، عن توبة الفقـراء، وتوبة الأمراء، عن توبة الرجال، وتوبة النساء، عن توبة الصغـار، وعـن توبـة الكبار، التوبة! التوبة! التوبة، كلمة عظيمة، جليلة، كبيرة، جميلة، سهلة، صعبة، قوية، رقيقـة، إن أمرهـا عجيـب، كيـف أثـرت في الظَّلَمَـةِ فـأصبحوا منصفين من أنفسهم ومتحملين لجـور إخوانـهم؟ التوبـة كيـف جعلـت القـوي

Marfat.com

الظالم قوياً عادلاً؟ وأخذ يبحث فيما كتبه عن الشيخ ويحاول أن يدوّن كل شيء، نعم كل شيء، فالشيخ عبد التواب في كل دقيقة له عظة، وفي كل مناسبة له عظة فقد ذكر له ما كتبه ابن قدامه المقدسي عن التوابين، منها قصة القبور الثلاثة، التي شاهدها (البكري) في بلاد مما يلي أنطاكية، وقد شاهد ثلاثة قبور مسنمة على قدر واحد مصطفة، وعلى كل قبر بيتان من الشعر، وعند استفساره لأحد الشيوخ، حدثه بقصة هذه القبور، وأنها لثلاثة اخوة، أحدهم أمير، والآخر تاجر، والثالث زاهد، فأخبره الشيخ أنه عندما حضرت الوفاة للرجل العابد، اجتمع عنده أخواه، فقال له: أخوه الوالي، وقد كان والياً ظالماً غشوماً، فطلب من أخيه عند الاحتضار أن يضع وصيته.

-فقال العابد: لا والله، مالي من مال فأوصي فيه، ولا لي على أحد دين فأوصي به، ولا أخلف من الدنيا شيئاً فأسلبه.

-فقال له أخوه ذو السلطان: أي أخي! قل لي ما بدا لك، فهذا ما لي بين يديك، فأوصي منه بما أحببت، وافعل ما أردت، فهو ملك يمينك، فسكت العابد عنه، فقام أخوه الآخر وهو التاجر وقدّم نفس العرض، وأخبره أن يحتكم في ما له بما أحب فأقبل عليهما فقال: لا حاجة لي في مالكما، ولكن لي طلب واحد تتعهدان به، وهو بعد موتي أن تقوما بغسلي، وتكفيني، ودفني على مرتفع من الأرض، واكتبا على قبري:

Marfat.com

وكيف يَلَذّ العيشَ من هو عالمٌ بأن إلهَ الخلق لا بدَّ سائلـــــه

فيأخذ منه ظلمه لعبـــــاده ويجزيه بالخير الذي هو فاعله

وعليكما أن تأتياني كل يوم لعلكما تتعظا.

فقام الأخوان ففعلا ذلك بعد موته، وجاء أخوه ومعه جنده إلى القبر وأخذ يبكي، وفي اليوم الثالث عند مجيئه وبعد بكائه سمع صوتاً قوياً من داخل القبر خاف منه وانصرف عن القبر وهو مذعور فزع، وفي الليل شاهد في المنام أخاه فقال له: أي أخي ما الذي سمعت من قبرك؟ فقال له أخوه: ذلك صوت المقمعة، فقد قيل لي: رأيتَ مظلوماً فلم تنصره، فأصبح مهموماً، فدعا أخاه وخاصته، وقال: ما أرى أخي أراد بما أوصانا أن نكتب على قبره غيري، وإني أشهدكم أني لا أقيم بين ظهرانيكم أبداً، ثم ترك الإمارة، ولزم العبادة، وكتب لأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان في ذلك، فكتب أن خلُّوه وما أراد.

فكان يأوي-رحمه الله-إلى الجبال والبراري، حتى حضرته الوفاة، وهو مع بعض الرعاة، فبلغ أخاه أمر أخيه فأتاه فقال: أي أخي ألا توصي؟

-قال: بما أوصي؟ مالي من مال فأوصي به، ولكن أعهد إليك عهداً، إذا مت، فأنزلني قبري واجعله إلى جانب قبر أخي، واكتب على قبري:

وكيف يلذُّ العيشَ منْ كان موقناً بأنَّ المنايا بغتةً ستعاجلُـــهْ

فتسلُبُـــه مُلْكَا عظيماً ونخـــوةً وتُسْكِنُهُ القبر الذي هو آهِلُهْ

Marfat.com

ثم تأتي قبري ثلاثاً، وأكثر لي الدعاء، لعل الله أن يرحمني!

فمات، نفذ أخوه وصيته، فلما كان اليوم الثالث من إتيانه قبر أخيه، دعا لـه وبكى عند قبره. فلما أراد أن ينصـرف سمـع مـن القـبر صـوت سـقوط شيء، لـه صخب وضجة قوية، كادت تذهل عقله، فرجع مضطرباً.

فلما كان نائماً، شاهد أخاه في منامه، فقال لـه: أي أخي أتيتنا زائراً؟

-قال: هيهات أخي، بعد المزار، واطمأنت بنا الديار.

-قلت: أي أخي، كيف أنت؟

-قال: بخير، ما أجمعَ التوبةَ لكل خير؟ قال: قلت فكيف أخي؟ قالُ: ذلك مع الأئمة الأبرار، قال: قلت: فما أمرنا قِبَلكم؟ قال: من قدّم شـيئاً في الدنيـا وجده في الآخرة، فاغتنم غناك قبلَ فقرك.

فقام من النوم، وفرق ماله وديارِه، وأقبل على طاعة اللهِ تعالى.

قال: ونشأ لـه ابن كأهيأ الشبابَ وجهاً وجمالاً. فأقبل على التجارة حتى أصبح من أشهر التجار وحضرت أباه الوفاة، فقال لـه ابنه: يا أبت، ألا توصي؟

قال: والله يا بنيَّ! ما لأبيك مـال فيوصـي فيـه، ولكـني أعـهد إليـك عهداً، إذا متُّ، فادفني مع عمومتك، واكتب على قبري هذين البيتين:

وكيف يلذ العيش من هو صائـــرٌ إلى جدثٍ تبْلي الشبابَ منازله

ويذهبُ رسم الوجه من بعد صونهِ سريعاً ويَبْلى جسمُهُ ومفاصلُـه

Marfat.com

وبعد الدفن، عليك ياولدي أن تأتي قبري، وتدعو لي ثلاثة أيام، ففعل الفتى ما طلبه والده، وفي اليوم الثالث سمع من القبر صوتا اقشعر لـــه جلـده، وتغير لونه، فرجع منه محموماً إلى أهله.

وفي المنام أتاه أبوه، فقال لـه: أي بنيّ! أنت عندنا من قليـل، والأمـر بآخره، والموت أقرب من ذلـك، فاستعدَّ لسفرك، وتـأهب لرحيلـك، وحـول جهازك من المنزل الذي أنت سائر وراحـل عنـه إلى المـنزل الـذي سـوف تقيـم فيه، ولا تغترَّ بما اغتر به المبطلون من قبلك من طول آمالهم، فقصروا عن أمـر معادهم، فندموا عنـد المـوت أشـد الندامـة، وأسـفوا علـى تضييـع العمـر أشـد الأسف، فلا الندامة عند الموت تنفعهم، ولا الأسف على التقصير ينقذهـم مـن شر ما وافى به المغبونون مليكهم يوم القيامة، أي بنيَّ فبادر، ثم بادر.

وقصَّ الفتى قصته للمقربين لديه، وقام يوزع ماله، ويقضي ما عليه من الدين، ويستحلُّ خلطاءه ومعامليه، وحللهم، وأخـــذ يسـلم عليـهم، ويودعـهم ويودعونه، كهيئة رجل قد أنذر بأمر فهو يتوقعه.

وكان يقول: قال أبي: فبادر، ثم بادر، ثم بادر، فهذه ثـلاث، فـهي ثلاث ساعات قد مضت فليست بـها، أو ثلاثـة أيـام، أو ثلاثـة أشـهر، ومـا أراني أدركها. فلم يزل يعطي ويقسم ويتصدق ثلاثـة أيـام، حتـى آخـر اليـوم الثالث، دعا أهله وولده، فودَّعهم، وسـلم عليـهم، ثـم اسـتقبل القبلـــــة،

Marfat.com

فمدد نفسه، وأغمض عينيه، وتشهد شهادة الحق، ثم مات-رحمه الله- (المقدسي، ١٤٢٠هـ: ١٧١-١٧٥).

وأخذ (راضي) يفكر في هذه القصة، وكيف أن الظالم رغم ظلمه أدركته رحمة الله عندما تاب في الوقت المناسب قبل أن يغرغر فأصلح ما أفسد؟

وأخذ يتذكر قصة عبد الله بن مرزوق الذي كان منغمساً في اللهو والسماع، فلم يصلِّ الظهر والعصر والمغرب، وكيف أن جاريته كانت تنبهه، فلا يتنبه، فلما جاء وقت العشاء، جاءت الجارية بجمرة فوضعتها على رجله، فانزعج وقال: ما هذا؟ قالت له: جمرة من نار الدنيا، فكيف تصنع بنار الآخرة؟ فبكى بكاءً شديداً، ثم قام إلى الصلاة.

وبعد الصلاة أخذ يفكر، وحدثت الصلة بينه وبين مولاه، ووجد أن عليه مفارقة ما يغضب خالقه، ثم أخذ في التصدق بماله وعتق جواريه، وتحلل من معامليه، فدخل عليه سفيان بن عيينة، والفضيل بن عياض، فوجد تحت رأسه لبنةً وليس تحته شيء ترك كل الذنيا وطلقها وأقبل على الآخرة.

فقال له سفيان: إنه لم يدَع أحد لله شيئاً إلا عوضه الله منه بدلاً، فما عوضك مما تركت له؟

فقال: الرضى بما أنا فيه.

ثم قام (راضي) يفكر وأخذ يقول:

Marfat.com

نعم، يجب عليَّ الرضا بما أنا فيه، يجب علـي أن أقبـل علـى ربـي، يجـب علي أن استغفر ذنـبي، يجـب علـي أن أعـرف طريـق الخـير ودرب الجنـة، فاسلكه، ولكن هل يمكن كل هذا؟ هل يمكن؟ فقد قتلـت، وقـد سـرقت، فقـد زنيت، فقد أخفت المسلمين! لا أعلم، لا أعلم، فقد قال لي قـارون المجنـون: إن ما أنا فيه من الله، فكيف أخرج عـن قـدر الله؟ نعـم، ولكـن قـد أخـبرني الشيخ عبد التواب أن علي أن آخذ بالأسباب التي قدرهـا الله، وأخـذ يتذكـر قول الشيخ عبد التواب ويردد ويقول: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُـهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾(سـورة الحديـد: ١٦) وأخـذ يقـول لنفسـه: اللـهم بلى، اللهم بلى. اللهم بلى، وتمنى لو لديه كتاب الله ليقرأ فيه، وقام يصلي، ويدعو، ويبكي، ويستغفر، ومكث مع نفسه وهو يتمنى أن يشاهد الشيخ عبـد التواب ليدله على طريق التوبة وشروطها، وأخذ يقول لنفسه: أعـرف نفسـي، إن جرمي عظيم، عصيت خالقي بالليل والنهار، عصيت مَن خلقني، عصيـت مَن أحياني، عصيت من يميتني، عصيت من يحاسبني.

ياربي، ياخالقي، ماذا أقـول لـك وأنـت عـالم بفضـائحي وخطايـاي؟ أتمقتني كما مقتني خلقك؟ أم تجود عليَّ بعفوك وإحسانك؟ إلى من أهـرب ولا منجى منـك إلا إليـك. يـارب قـد أسـعدتني بـأن نبـهتني مـن غفلـتي! فـهل ستنجيني من العقبة التي سوف أسلكها يوم العرض عليك؟ أم يكـون مصـيري كمصير من يستغيثون فلا يغاثوا؟ ويدعون فلا يستجاب لهم؟ أرجـوك يـارب،

Marfat.com

فقد غفرت للظالم، وغفرت للتاجر، وأعليت درجة العابد وهديت المغنِّي.

نعم، هديت المغني التائب الذي شهد له عبد الله بن مسعود بأن الله أحبه، نعم، سقد تذكرت قصة الشيخ عبد التواب عن المغنِّي (زاذان) صاحب الصوت الحسن الذي قال له عبد الله بن مسعود: ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله، فقام وضرب بالعود الأرض فكسره، وتبع عبد الله بن مسعود فقال له: كيف لا أحب من قد أحبه الله ﷻ، فتاب إلى الله ﷻ من ذنوبه، ولازم عبد الله بن مسعود حتى تعلم القرآن، وتعلم حتى صار إماماً في العلم (المقدسي، ١٤٢٠هـ: ٢٢٢).

نعم! نعم!نعم! كما قال الشيخ: من أقبل على الله، أقبل الله عليه، وهدأت خواطره، وطابت نفسه وبدأ جسده يرتخي وأدركه النوم.

ظل في نوم عميق لم يوقظه إلا طرق (صادق) صاحب (محسن)-رحمه الله-وهو يقول: يا (ساخط) يا (ساخظ) فتح عينيه وقال: من؟ (صادق)؟ أهلاً بك ومرحباً، أرجوك، أرجوك، أرجوك لا تُعد عليَّ اسمي القديم، لا، لا، ليس اسمي القديم، بل الاسم الذي أطلقه عليَّ (قارون المجنون)، أريدك أن تدعوني باسمي الحقيقي (راضي) فقد سميت مرتين عند ولادتي! نعم لقد ولدت مرتين، مرة عند خروجي إلى الدنيا، فسماني أبي راضي، ويوم أن خرجت من دنيا الشر التي ملأت نفسي، وأرجع الشيخ عبد التواب ما فقدته، إن اسمي الحقيقي (راضي)، وقد شعرت الآن بالرضا الذي فقدته، ثم

Marfat.com

أخذ يكرر الدعاء السابق: اللهم أرحـني في شـؤوني كلـها بـرَوْح الرضـا ونعيـم التسليم يااللّه يابرُّ يارحيم.

-صـادق: الحمـد للّه يـا (راضـي)، فقـد فقـدت (محسـن)، خـير أخ عرفتـه، ورزقني اللّه بك، وأرجو أن نتعاون على طاعة اللّه

-راضي: طاعة اللّه، طاعة اللّه! ما هو الطريق! وكيف الوصول!

-صادق: التوبة، التوبة يا (راضي).

-راضي: قد ارتكبت آثاماً كبيرة، ولم أعتقد في يوم من الأيام أني سوف أرجع عنها، لأن (قارون المجنون) جعلني أعيش وكأن هذا قدري المحتـوم الـذي لا يمكن أن أخرج منه، إلى أن رزقني اللّه وأكرمني فسجن جسدي، وحرَّر روحي من سجن الذنوب كما قال لي الشيخ (عبد التواب).

صادق: ما أكـرم هـذا الشـيخ! فقـد جعلـه اللّه في السـجن كـي يحـرر النفوس من رق الشهوات والهوى، نعم، كي يعيد إلى النفوس صفاءها المسلوب بسبب الذنوب.

راضي: وأنت يا صادق هل حررت نفسك؟

صادق: أرجو من اللّه أن أكون كذلك، فقد كنت مدمن خمر لا أتركـها إلى أن حدث ما حدث، عندما خرجت في إحدى الليالي وأنـا في أشـد حـالات السكر، واعتديت على بعـض الجـيران، وضربتـه، وأتـت الشـرطة، وقبضـت عليَّ، وأصبحت حالة الرجل في خطر في المستشفى، وقـد مضـت سـتة أشـهر

Marfat.com

وعشرة أيام، وأنا هنا أحسب الأيام، لكي أخرج من السجن متى ما شاء الله، وأحاول أن أعمل ما في جهدي للبعد عن ما يغضب الله، وأستمر في طلب العلم الذي أوصاني به الشيخ (عبد التواب)، ولعلي أصبح في يوم من الأيام مثل مالك بن دينار!.

-راضي: ومن هو مالك بن دينار هذا الذي تود أن تكون مثله؟

ضحك (صادق)، وقال: لا أظن أن أصل إلى علمه وفضله، ولكن قصته يا أخي كما أخبرني الشيخ (عبد التواب) مثل قصتي، فقد كان يشرب الخمر إلى أن أدركته عناية الله وجعل له سبباً للوصول إلى طريق الجنة والدخول إلى عالم الخير والخروج من عالم الذنوب، والسبب.يا راضي جعله الله من طريق ابنته الصغيرة التي كان يحبها حباً شديداً وقلبهمتعلق بها، وكانت إذا وضع المسكر بين يديه، جاءت وهي صغيرة، وجذبت المسكر عنه، وأهرقته، فلما تم لها سنتان، ماتت، فأكمده الحزن، وفي يوم النصف من شعبان، في ليلة الجمعة، قام مالك بن دينار وهو ثملٌ من الخمر ولم يصل العشاء، فرأى فيما يرى النائم كأن القيامة قد قامت، ونفخ في الصور، وبعثرت القبور، وحشر الخلائق وهو معهم، وسمع صوتاً من ورائه، فالتفت، فشاهد تنيناً عظيماً، أسود أزرق، قد فتح فاه مسرعًا نحوه.

فهرب مالك بن دينار وهو فزع مرعوب، فمر في طريقه بشيخ نقيٍّ الثوب، طيب الرائحة، فسلم عليه وقال له: أيها الشيخ، أجرني من هذا

Marfat.com

التنين أجارك الله، فبكى الشيخ وقال لـه: أنا ضعيف، والتنين أقـوى مـني، وما أقدر عليه، ولكـن أسـرع، فلعـل الله يتيـح لـك مـا ينجيـك مـن التنـين، فهرب، وصعد على شرفة من شُرَف القيامة، فأشـرف علـى طبقـات النـيران، فنظر إلى هولها، وكـاد أن يـهوي فيـها مـن فـزع التنـين، فصـاح بـه صـائح: ارجع، فلست من أهلها، فاطمأن لقوله، ورجع.

ورجع التنين في طلبه، فمر ثانية بالشيخ وقال لـه: ياشيخ، سألتك أن تجيرني من هذا التنين، فلم تفعل. فبكى الشيخ وقال: أنا ضعيف، ولكن سـر إلى هذا الجبل، فإن فيه ودائع المسلمين، فإن كان لك فيه وديعة فستنصرك.

فهربت إلى الجبل، والتنين من ورائـي، حتـى إذا قربـت منـه، صـاح بعض الملائكة: ارفعوا الستور، وافتحوا المصاريع، وأشرفوا، فلعل لهذا البائس فيكم وديعة تجيره من عدوِّه، فإذا الستور قد رفعت، والمصـاريع قـد فتحـت، فأشرف عليَّ أطفال بوجوه كالأقمار. وقرب التنين مـني، فتحـيرت في أمـري. فصاح بعض الأطفال: ويحكم، أشرفوا كلكم فقد قرب منه عدوه. فأشرفوا فوجاً بعد فوج، وإذا أنا بابنتي التي ماتت قـد أشـرفت عَلـيَّ معـهم. فلمـا رأتـني، بكت، وقالت: أبي والله، ثم وثبت في كفة مـن نـور، كرمْيَـةِ السـهمَ، حتـى مثلت بين يديَّ. فمدت يدها الشمال إلى يدي اليمنـى، فتعلقـت بـها، ومـدت يدها اليمنى إلى التنين فولى هارباً.

Marfat.com

ثم أجلستني، وقعدت في حجري، وضربت بيدها اليمنى إلى لحيتي، وقالت: يا أبتِ (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ) (سورة الحديد: ١٦). فبكيت، وقلت: يا بنية، وأنتم تعرفون القرآن؟ فقالت: يا أبت! نحن أعرف به منكم. فطلب منها أن تخبره عن التنين الذي أراد أن يهلكه ويقضي عليه، فقالت له: ذلك عملك السوء، قَوَّيته، فأراد أن يُغْرِقَكَ في نار جهنم.

ثم طلب منها إخباره عن الشيخ الذي مر به في طريقه، فقالت له: يا أبت، ذلك عملك الصالح، أضعفته، حتى لم يكن له طاقة بعملك السوء.

ثم طلب منها أن تخبره عن وجودها في الجبل، فقالت له: نحن أطفال المسلمين، قد أسْكِنَّا فيه إلى أن تقوم الساعة، ننتظركم تقدمون علينا، فنشفع لكم. فأستيقظ مالك بن دينار من نومه فزعاً، فكسر آنية الخمر وأراق الخمر وتاب إلى اللهﷻ (المقدسي، ١٤٢٠هـ: ٢٢٣-٢٢٥).

راضي: يا لها من قصة عجيبة أفهمتني أن الإنسان في الدنيا عليه العمل ليقوي عمله الصالح، لكي لا يتغلب عليه العمل السيء، فيكون مصيره الهلاك، وأن عليه أن يتنبه للحلال والحرام، لكي ينجو من غضب الرحمن.

صادق: نعم يا (راضي)، فمعرفة الحلال والحرام مطلب للنجاة من النيران والعمل بالكتاب والسنة أساس لكل عمل، وقد أخبرني الشيخ عبد

Marfat.com

التواب كيف أن القرآن يؤثر في النفوس، حتى إن بعض السلف مات عند سماعه آية من كتاب الله.

-راضي: مات! مات! كيف كان هذا الأمر؟

-صادق: هناك قصص كثيرة أخبرنا بها الشيخ (عبد التواب)، أذكر منها قصة علي بن الفضيل بن عياض، فقد كان والده ذلك الرجل الفاضل الجليل-رحمه الله-يقرأ قول الله تعالى: (رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ) (سورة المؤمنون: ١٠٦). وكان عليٌ خلفه فخر مغشياً عليه، فجاءت أمه، ورشَّت عليه الماء، فأفاق، وقالت لزوجها الفضيل: أنت قاتل هذا الغلام. فمكث الفضيل فترة وقام يصلي وحده، ولم يشعر أن ابنه خلفه فقرأ قوله تعالى: (وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ) (سورة الزمر: ٤٧). فخرَّ ابنه علي ميتاً، وتجوَّز الفضيل في القراءة، وأتت أمه ورشت عليه الماء، فإذا هو ميت رحمه الله (المقدسي، ١٤٢٠هـ: ٢٢٨-٢٢٩).

-راضي: ما أطهرها من نفوس: شاب صغير في السن، تخوفه آية، ويموت خوفاً من عقاب الله، وأنا ما زلت في بعدي عن الله لا أعرف الطريق الذي يجب أن أسلكه رغم أن الشيخ أرشدني إلى التوبة وشرح لي جميع آيات التوبة في سورة البقرة وغيرها من السور، ووعدني بالمزيد، فما رأيك يا (صادق) أن نذهب إليه ونطلب منه المزيد؟

Marfat.com

–صادق: نعم، نعم، ما أطهر النفوس التائبة العائدة إلى الله، فلنذهب معاً إلى الشيخ، ليدلنا على طريق الخير، سار (صادق) و (راضي) تجاه مكان الشيخ، وفي الطريق وجدا رجلين، كل واحد منهما يشتم الآخر بأقبح الألفاظ، ويكيل له السباب، وبقية المساجين يحاولون أن يبعدوهما عن بعضهما، وكلاهما يهدد ويتوعد، فقال صادق: هل عرفتهما يا (راضي)؟ نظر إليهما (راضي) وقال: لا، لم أشاهدهما من قبل.

–صادق: إنهما كانا صديقين في عصابة واحدة، واليوم أعداء، وقد دب الخلاف بينهما بعد أن كانا أصدقاء لأكثر من عشرين عاماً، اختلفت المصالح، فضاعت الأخوة، اختلفت المصالح، فجاء العداء، اختلفت المصالح وأصبح كل واحد منهما يحمل في قلبه كرهاً وحقداً، وقد أخبرني الشيخ عبد التواب أن الأخوة الصادقة هي التي تكون من أجل الله وليس للمصالح، فأسال الله أن يجعل أخُوَّتِيْ معك في الله تقودنا جميعا إلى جنة عرضها السموات والأرض، كمْا أنني كتبت عنه ما قاله القائل:

Marfat.com

مِــنْ حَيْثُ كُنْتَ بِمَا قَارَفْتَ مَسْــؤُلُ ... وَالنَّاسُ صِنْفَانِ مَرْدُوْدٌ وَمَقْبُـــــــوْلُ

فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ أعْمَالاً تُسَرُّبِـــــــهَا ... فِيْ الْحَشْرِ وَالنَّاسُ مَسْرُوْرٌ وَمَخْــذُولُ

وَاعْلَمْ بِأنَّكَ فِـــــيْ دَارِ مُـنَـغِّـصَـةٍ ... وَحَالُ أرْبَابِهَا مِنْ بَعدُ مَجْهُـــــــولُ

مَاذا يَضُرُّكَ لَـوْ بَادَرْتَ مُغْتَنِمـــــاً ... وَقْتَ التَّلاقِيْ وَحَبْلُ الْعُمْرِ مَوْصُـــولُ

كَمْ ذَا التَّعَامِيْ وَسُبْلُ الْحَقِّ وَاضِحَــةٌ ... قَدْ أشْغَلَتْكَ عَنِ العُقْبَى الأبَاطِيْـــــلُ

رُوَيْدَكَ ارْجِعْ عَنِ الزَّلَّاتِ مُتَّخِــــذًا ... سَيْفًا مِنَ الْعَزْمِ يَفْرِيْ وَهُوَ مَسْلُــــولُ

فَمَا إخَالُكَ بِالتَّسْوِيْفِ تُدْرِكُ مَـــــا ... تَرُوْمُهُ وَحُسَامُ الْعَجْزِ مَفْلُـــــــوْلُ

وَالدَّارُ هَذِي كَمَا شَاهَدْتَهَا عِبَـــــرٌ ... لِمَنْ لَهُمْ فِكْرَةٌ فِيْهَـــا ومَعْـــقُـــولُ

فَكَمْ بِهَا مِنْ حَبِيْبٍ كُنْتَ تَألَـــفُـــهُ ... مَعَ اتِّصَالٍ فَأمْسَى وَهُـــوَ مَـفْـصُـولُ

واقتربا من مكان الشيخ، وفي ذهــن (راضــي) أسئلة عديـدة، يريـد أن يتفضل الشيخ فيجيب عنها، ووصلا إلى الشيخ، فكان عنده رجلان.

Marfat.com

سلّم (صادق) و (راضي) على من حضر، فقال لهما الشيخ: مرحباً بكما، إجلسا فقال (صادق): أخشى أن لا يسعنا المكان!

-قال الشيخ: السعة في القلوب، وأسأل الله أن يشملنا بواسع رحمته. جلس (صادق) و (راضي) والشيخ يقول للرجلين: هكذا يؤثر القرآن في النفوس التي سبقت لها الحسنى، فالتذكير بآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ ووعظ النفوس بأقوال سلف هذه الأمة تنير الطريق، وقد قلت لكم إنني سوف أقص عليكم قصة الفتى الأزدي الذي سمع قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (سورة غافر: ١٨). وسمع صالح المرِّي-رحمه الله-وهو يقول: كيف لا يكون للظالم حميم أو شفيع، والمطالب له رب العالمين؟ إنك والله لو رأيت الظالمين وأهل المعاصي يساقون في السلاسل والأنكال إلى الجحيم حفاة عراة، مسودة وجوههم، مزرقة عيونهم، ذائبة أجسادهم، ينادون يا ويلنا، يا ثبورنا، ماذا نزل بنا؟ ماذا حل بنا؟ أين يذهب بنا؟ ماذا يراد منّا؟ والملائكة تسوقهم إلى النيران، فمرة يخرون على وجوههم ويسحبون عليها منكبين، ومرة يقادون إليها مقرَّنين، فمن باكٍ دماً بعد انقطاع الدموع، ومن صارخٍ طائرِ القلب مبهوت، إنك والله لو رأيتهم على ذلك لرأيت منظراً لا يقوم له بصرك، ولا يثبت له قلبك، ولا تستقر لفظاعة هوله على قرار قدم.

-ثم صاح، وقال: يا سوء منظراه! يا سوء منقلباه! وبكى، وبكى الناس!

Marfat.com

-**فقال لـه الشاب الأزدي**: يا أبا بشر، أكُلُّ هذا في يوم القيامة؟

-**قال صالح رحمه الله**: نعم، والله يا ابن أخي، وما هو أكثر، فقد بلغني أنهم يصرخون في النار حتى تنقطع أصواتهم، فما يبقى منهم إلا كهيئة الأنين من المريض الذي ثقل عليه مرضه، فصاح الفتى الأزدي: إنا لله! وا غفلتاه عن نفسي أيام الحياة، وا أسفاه على تفريطي في طاعتك يا سيداه، وا أسفاه على تضييعي عمري في دار الدنيا، ثم بكى، واستقبل القبلة فقال: اللهم! إني استقبلك في يومي هذا بتوبة لا يخالطها رياء، اللهم! فاقبلني على ما كان فيَّ، واعف عما تقدم من فعلي، وأقلني عثرتي، وارحمني ومن حضرني، وتفضل علينا بجودك وكرمك، يا أرحم الراحمين، لك ألقيت معاقد الآثام من عنقي، وإليك أنبت بجميع جوارحي، صادقا لذلك قلبي، فالويل لي إن لم تقبلني.

ثم سقط مغشياً عليه، فَحُمِلَ من بين القوم صريعاً، فمكث صالح رحمه الله وإخوته يعودونه أياماً، ثم مات، فكان صالح-رحمه الله-يقول عندما يذكره في مجلسه: بأبي قتيل القرآن، وبأبي قتيل المواعظ والأحزان (المقدسي، ١٤٢٠هـ: ٢٦٢-٢٦٣).

هذا يا أبنائي قتيل القرآن، كانت آية من كتاب الله عظة له، فندم على ما فات، وكم من فرد لا يتعظ بالقرآن، وكم من فرد لا تهزُّ عواطفه المواعظ، وكم من فرد تمر العبرة ولا يعتبر! وهناك بعض الرجال من تكون هدايته من الله بسبب موقف يمر به كما حدث (لدينار العيار) الذي كانت

Marfat.com

والدته تعظه ولا يتعظ، فمر في بعض الأيام بمقبرة، فأخذ منها عظما نخراً فأنفَتَّ في يده، ففكر في نفسه، كيف اليوم يمشي، وغداً يموت! كيف اليوم حياً وغداً عظاماً رفاتاً! والجسم تراب، والدنيا مضت كأنها سراب، والحياة مثل من دخل من باب وخرج من باب، سوف يفارق الأحباب والأصحاب، فندم، وعزم على التوبة، ورفع رأسه لخالقه ومولاه، وقال: إلهي! إليك ألقيت مقاليد أمري، فاقبلني وارحمني!

ثم رجع إلى أمه ولونه متغير، وقلبه منكسر فقال: ياأماه! ما يصنع بالعبد الآبق إذا أخذه سيده؟

-**فقالت**: يَخشِّنْ ملبسه ومطعمه، ويغلُّ يده وقدمه.

-**فقال**: أريد جبة من صوف، وأقراصا من شعير، وتفعلين بي كما يُفْعل بالعبد الآبق، لعل مولاي يرى ذلّي فيرحمني. ففعلت ماطلب.

وكان في الليل يقول لنفسه: ويحك يادينار! ألك قوة على النار؟ كيف تعرضت لغضب الجبار؟ ويستمر على هذا الحال إلى الصباح.

-**فقالت له أمه**: ارفق بنفسك.

-**فقال**: دعيني أتعب قليلا، لعلي استريح طويلاً، يا أمي: إن لي موقفاً طويلاً بين يديْ رب جليل، ولا أدري أيؤمر بيَ إلى الظل الظليل؟ أو إلى شرٍّ مقِيل؟ إني أخاف عناءً لا راحة بعده! وتوبيخاً لا عفو معه!

-**قالت له أمه**: استرح قليلاً.

Marfat.com

-فقال: الراحة أطلب، أتضمنين لي الخلاص؟

-قالت لـه أمه: فمن يضمن لي؟

-قال: فدعيني وما أنا عليه، كأنك يا أماه غداً بـالخلائق يسـاقون إلى الجنـة وأنا أساق إلى النار.

وفي إحدى الليالي أخذ يقرأ القرآن الكريـم، وعندمـا قـرأ قـول الحـق سـبحانه وتعالى: (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أجْمَعِيْنَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُـونَ) (سـورة الحجـر: ٩٢-٩٣). فكر في الآية الكريمة، وأخذ يبكي! وجعل يضطرب مثل الحية! حتـى خرَّ مغشياً عليه: فجاءت أمه إليه تناديه، فلم يجبها.

-فقالت لـه: قرة عيني، أين الملتقى؟

-فقال بصوت ضعيف: إن لم تجديني في عرصة القيامة، فاسألي مالكاً عـني، ثم شهق شهقة مات فيها. فجهزته وغسلته، وخرجت تنادي: أيـها النـاس، هلموا إلى الصلاة على قتيل النار، فجاء الناس، فلم يُـر أكـثر جمعـاً ولا أغـزر دمعاً من ذلك اليوم (المقدسي، ١٤٢٠هـ: ٢٦٦-٢٦٧).

هذه يا أحبائي نماذج، سقتها سريعاً، أرجو أن تساعدني وإياكم علـى التوبة والاستغفار، لأن سـيد البشـر حبيـب الله محمـد بـن عبـد الله ﷺ كـان يقول: (يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب إليه في اليوم مائـة مرة) وأخبرنا بقولـه: (إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسـي، النـهار، ويبسـط

Marfat.com

يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها). وهو يؤكد ﷺ أن كل بني آدم خطَّاء، وخير الخطائين التوابون.

وأخبر عن الخالق جل وعلا في الحديث القدسي يقول: (يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا اغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني، اغفر لكم. (المقدسي، ١٤٢٠هـ: ٣٠٦).

وبهذا تدركون أن كرم الله كبير، وأن رحمته واسعة، وأن حلمه على عباده لا حد له، وقد أسلفت أن رحمة الله تدرك المسلم وغير المسلم، فعند ما يريد الهداية لفرد، يلهمه التوبة، ولعلي أسوق شاهداً واحداً يدلل على ذلك، فقد قيل:

إن رجلا نام، فرأى النبيّ المصطفى ﷺ في المنام يأمره أن يذهب إلى مجوسي في بغداد، ويقول له: قد أجيبت الدعوة، فلما أصبح أخذ يقول لنفسه كيف يذهب إلى مجوسي فلم يذهب، ونام، وفي الليلة الثانية رأى مثل الليلة الأولى، وكذلك في الليلة الثالثة. فعزف أنها رؤيا حق، وذهب إلى بغداد وبحث عن المجوسي، فوجده في جاه ومال ودنيا واسعة، فدخل، وسلم عليه، وجلس حتى انصرف جميع من عنده، فأخبره بما شاهد في المنام، وأن رسول الله ﷺ يقول له: قد أجيبت الدعوة.

-فقال المجوسي للرجل: أتعرفني؟

Marfat.com

-**فقال الرجل**: نعم، فقال المجوسي: فإني أنكر الإسلام، وأنكر رسالة محمد.

-فقال له الرجل كذلك قلت، والنبي ﷺ أرسلني إليك.

-**فقال المجوسي**: أرسلك إليَّ؟

-**فقال الرجل**: نعم.

-**فقال المجوسي**: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

ثم قام المجوسي، ودعا أصحابه، وقال: قد كنت في ضلال، وقد رجعت إلى الحق فمن أسلم، فما في يديه هو له، ومن لم يسلم، فلينتزع مما لي عنده. فأسلم القوم إلا قليلاً، ثم دعا ابنه فقال: يا بني إني كنت في ضلال، وقد أسلمت، فما أنت صانع؟

قال: يا أبت، أسلم، فأسلم الابن ونطق بالشهادتين.

ثم دعا ابنته، وقال: يا بنية! قد أسلمت وأسلم أخوك، فإن أنت أسلمت فرقت بينكما (لأنهما كانا متزوجين).

فقالت: يا أبت، والله لقد كنت كارهة لاجتماعي به، وأسلمت، ثم التفت إلى **الرجل، وقال له**: أتدري الدعوة التي أجيبت؟

فقال له: لا.

-**فقال**: إنه عندما زوج ابنته بولده، وضع لهما الطعام، ودعا الناس كلهم فأجابوا دعوته، وأكل الناس، وبعد ذلك شعر الرجل بتعب، فأمر خادمه أن

Marfat.com

يفرش لـه حصيراً في أعلى الدار لكي ينام قليـلاً، وعندمـا طلـع، سمـع صبيـة صغيرة وهي تقول لأمها: يا أماه ! قد آذانـا هـذا المجوسـي برائحـة طعامـه. وكانت هذه الأسرة من الأشراف الذيـن ينسـبون إلى النـبي ﷺ، فعندمـا سمـع المجوسي هذا الكلام، أخذ يحمل طعاماً كثيراً، ودنانير كثيرة وكسوة لكل من في الدار، فقالت لـه واحدة من البنات: حشرك الله مع جدي، وقال الباقون: آمين، فتلك الدعوة التي أجيبت (المقدسي، ١٤٢٠هـ: ٣٠٢-٣٠٣).

هذه ثمار رحمة الله أدركت المجوسي بدعوة مـن بيـت آل رسـول الله ﷺ، من فم صبية فقراء، وكانت كذلك ثمرة من ثمـار حسـن الجـوار، فالجـار الكافر نالته بركة جوار المسلمين الذين لم يجدوا ما يكافئون بـه جـارهم سـوى الدعاء، فكان نعم الجزاء.

وتوقف الشيخ وقال: هذه القصص الـتي أذكرهـا للعـبز لأن كثـيراً مـن البشر لا يعلم بعضهم شيئاً عن بعضهم الآخر، وإن التأثر يظـهر عندمـا تنتشـر قصة من هذه القصص، ولكن الحـذر من تضخيـم الأحـداث، وأكـثر الأخبـار المنتشرة هي أخبار أبناء الدنيا، أما أبناء الآخرة من الفقـراء وغـيرهم، فـالقليل من أخبارهم تتداول، ويفقد تاريخ البشرية نمـاذج مـن نمـاذج الصفـاء والصـبر والجد والاجتهاد، فكوارث الفقراء لا أحد يعرف عنها شيئاً، وأمور تافهة عن الأثرياء تكتب ويضخم عنها، وليـس عنـهم فقـط، بـل عـن قططـهم وكلابـهم وأحذيتهم وثيابهم، أما المحرومون والضعفاء، فلا تجد من يُخْـرِجُ العظـة مـن

Marfat.com

تاريخهم، ولَكَ أن تنظر إلى دعوة الفقير كيف أخرجت الغني من محيط الكفـر وأدخلته بقدرة الله وإرادته إلى دائرة الإيمان ولعـل أخويكمـا هـذان إن عرفتمـا قصتهما تخرجان بعبرة تقودكما إلى فهم جديد وعلم مفيد.

-راضي: ما هي قصتهما ياشيخ!

-الشيخ: لا يوجد وقت الآن، فقد أثقلت عليكـم في ذكـر القصـص والمواعـظ، ولديَّ ما أريـد أن أعملـه. ولكـن يمكنكمـا أن تسـألاهما، ولـن يبخـلا عليكمـا بفائدة، وكل ما أستطيع أن أقوله لك ياولدي (راضي) هو ما قاله الشاعر -غفر الله له:-

عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ حَيْثُ تَوَجَّهْـــتَ ... وَكُنْ كَرِيْمَ الأَخْلاَقِ فِي السِّرِّ وَالْجَهْـرِ

وَحَسِّنِ الظَّنَّ بالْعِبَادِ إنْ شِئْـــتَ ... سُرُورًا مُؤَبَّدًا مِنَ اللُّبِّ وَالْقَشْـــرِ

وَهَبْ عَرْضَكَ لِلْخَلْقِ صَادِقًا إن كُنْـتَ ... تُرِيْدُ بَهَاءً ثُمَّ فَخْرًا عَلَى فَخْـــرِ

وَلَوْ أذَاكَ وَاحْمِلْ أذَاهُمْ وَصْبرْ حَتَّـى ... يُرَى صَبْرُكَ الْقَوِيُّ وَالرِّضَا بالأَمْـــرِ

إنَّ الرِّضا بَابُ اللهِ وَ الصَّبْرُ يَا فَتَـى ... بِهِ تَنَالُ الْمَقَامَ الأَعْلَى مِنَ الشُّكْـــرِ

وَقُمْ وَاجْتَهِدْ فِيْ الفَرْضِ والنَّفْلِ يَا فَتَى ... وَكُنْ ظَاهِرًا فِي البَرِّ وَالْقَلْبُ فِي البَحْـرِ

Marfat.com

قام (راضي) و (صادق) وخرج معهما الرجلان، وفي أثناء القيـام لاحـظ صادق أن أحد الرجلـين كـان شـديد العـرج، فحـاول (راضـي) أن يسـاعده في القيام، فالتفت إليه، وقال لـه: جـزاك الله خـيراً! إنـني أسـتطيع أن اعتمـد على نفسي، وحاول (راضي) أن يعرف ما هي قصتهما، وبعد حوار وهمـا في الطريق- قال أحدهما: حسناً سوف أحكي لـك قصـتي، ولكـن أرجـوك أن لا تسأل أخي عن قصته وسبب عرجه وأن تعدنـي بذلـك، لأن تذكـيره بالمـاضي يجعله في حالة سيئة لفترة طويلة.

وافق (راضي) على هذا الشرط، فقال الرجـل: سـوف أخـبرك بعـد أن يبتعد قليلاً ابن عمي مع صديقك (بصادق)، وبعد أن أصبحـت المسـافة كبـيرة بينهم، وتأكد من عدم وصول صوته لابن عمه، قال:

قد ولدت في قرية مـن قـرى هـذا الوطـن، وكنـت أعيـش علـى سـفوح الجبال المحيطة بقريتي، أتنقل من حقـل إلى حقـل ومـن بسـتان إلى بسـتان، ألعب وأضحك، وفي الليل يكون السمر وقصـص الكبـار وحكاياتـهم وتجاربـهم وقصص ذهابهم إلى المدينـة، وذكـر مـا في المدينـة مـن شـوارع ومبـاني، وعنـد حديثهم عن مباهج المدينة وسبل العيش الميسرة، حتى شعرت أن المدينة الـتي يتحدثون عنها هي جنة من الجنان، كل شيء موجود، فالمال وفـير، والخـير كثير، فكنت ابن الرابعة عشرة، وكل أحلامي، أصبحت مرتبطـة بذهـابي إلى المدينة، وحاولت مع ابن عمي أن نهرب مـن القريـة، ونـأتي للمدينـة حيـث

Marfat.com

الأمل المنشود، وفي يوم من الأيام زار قريتنا فريق من المهندسين، كان هدفهم معرفة بعض الأودية لإقامة السدود عليها، ومكثوا عدة أيام، وعند الرحيل تسللت أنا وابن عمي إلى إحدى الناقلات التي كانت معهم تحمل بعض المعدات، ومعنا بعض الطعام، ومكثنا في المخبأ عدة أيام، جاوزت الستة أيام لا نخرج إلا في الليل، عندما يستريح المهندسون في مكان ما.

وفي يوم الجمعة أذكره تماماً، لأن الفريق توقف وصلى الجمعة، وخطب أحد المهندسين، ولم نستطع أن نصلي من شدة الخوف، كي لا يتنبهوا لوجودنا، فيعيدونا إلى القرية قبل أن نشاهد المدينة، ولم يكن معنا أي شيء حتى الطعام الذي كنا جمعناه قد انتهى. وكان وصولنا للمدينة في الليل ودخلت القافلة وعرفنا المدينة من شدة الزحام، والأنوار الجميلة أنوار حمراء وخضراء وصفراء كما كان يصورها لنا أهلنا في حديث السمر بالقرية، وبعد فترة توقفت القافلة في أحد الأماكن عند مكان جميل، فيه أناس يشربون ويأكلون، ولم نعرف في ذلك الوقت أن المدينة كل شيء فيها بثمن، كنا نظن أنها مثل القرية نأكل من البساتين ومن الخير الوفير، ونشرب من الآبار والكل يعيش في خير كثير، وخرجنا ببطء شديد من المركبة التي ركبناها، وقلوبنا خائفة كي لا يقبضوا علينا ويعيدونا إلى القرية.

نزلنا ونحن في حيرة من أمرنا، ماذا نصنع والجوع قد بلغ منا أشد مبلغ؟ وأخذنا ننظر إلى الطعام، ودخلنا أقرب مكان، وظننا أن واجب الضيافة

Marfat.com

يلزمهم بإطعامنا، وقدم لنا الطعام، وبعد الانتهاء أردنا الانصراف فأمسك بتلابيبنا مدير المحل، وقال بلهجة شديدة: أتريدان الهروب؟ وحاولنا أن نشرح له الأمر دون فائدة وقال: سوف أطلب الشرطة، وقدم رجل آخر، وقال له: عاقبهما، واتركهما، وانهال علينا ضرباً، وقذف بنا خارج المحل.

كنا في عجب هل هذه المدينة خالية من كرم الضيافة؟ وأخذنا نسير ببطء من شدة الضرب ولا نعلم أين نتجه؟ وكيف نسير؟ وأين نستريح؟ وكيف ندبر أمورنا؟ ووصلنا بعد فترة من الزمن إلى مكان فيه أشجار، ووجدنا بعض الأفراد مستلقين تحت تلك الأشجار، فدخلنا المكان، وجلسنا تحت أحد الأشجار، ولم نشعر إلا بيد تحركنا، وصوت يأمرنا بالخروج: قد انتهى موعد فتح الحديقة، فاستيقظنا من النوم، وأخذنا نرجو الرجل أن يسمح لنا بإتمام النوم، فرفض بشدة، ولم يجدِ معه الرجاء، وسرنا ببطء وقد زاد الألم، وأصبحت أرجلنا تتحرك ببطء تام تحمل أجسادنا إلى القدر المجهول، ولا أريد أن أسهب في شرح معاناة الأيام الأولى التي قضيناها بالمدينة وشدة الألم.

إلى أن التقينا بشاب قد جاوز العقد الثالث من عمره وأخذ يقول: قد كنت أراقبكما منذ أيام، وشعرت بأنكما في حاجة شديدة، وقد أحضرت لكما هذا الطعام. وقدم لنا خبزاً ملفوفاً بورق خفيف، به قطع من اللحم، وهذا المرة الأولى منها، هذا الصنف من الطعام. وأخذ في الحديث معنا، وببساطة شديدة قصصنا عليه قصتنا، فقال: سوف أساعدكما، كي تجمعا بعض المال لتعودا إلى

Marfat.com

القرية، شريطة أن تساعداني في عملي، فإن عملـي في الليـل، ويتطلـب حمـل بعض البضائع التي ينبغي نقلها إلى أماكن أخرى، ونظراً الكون الزحام شديداً في النهار وقصر وقته فالعمل سيكون ليلاً.

وافقْتُ أنا وابن عمي بسرعة، فهدفنا أصبح الحصول على المـال الـذي يرجعنا للقرية. وبلهجة مرحة قال لنا: هيا إلى العمل، وأخذنا بسيارة لـه إلى مكان بعيد، وأنزلنا في غرفة صغيرة، ثم قـال بلهجـة حازمـة: سـوف أذهـب وأعود بعد منتصف الليل، وعاد بعد منتصـف الليـل وأنـا وابـن عمـي في نـوم عميق، فأخذ يوقظنا، فقمنا، وسرنا معه إلى السيارة، وفي الطريق اشـتد علينـا النوم، فنمنا، فأخذ يوقظنا بشدة، وقـال: سـوف أرجعكمـا لمكانكمـا إنكمـا لا تريدان العمل! فتوسلنا لـه وقلنا لـه: إننا مجهدان من شدة التعب والإرهـاق، ونريد كوباً من الشاي، كي ينشطنا، فقال: حسناً، سوف أقدم لكم الشاي لقد أحببتكما.

وقدم لنا الشاي فأخذنا نشرب الشاي، وبعد فترة شـعرنا بنشـاط غـير عادي، وببساطة أخذنا نقول لـه: لقد طـرد كـوب الشـاي عنـا النـوم، ونَشَّـطَ أجسادنا، فأخذ يقول: نعم إن شاي المدينة يختلـف عـن شـاي القريـة، فـهو أفضل، ووصلنا إلى مكان ضيق، وقف عنده قليلاً، وأغلق أنوار السيارة، وبعـد لحظات قدم رجل، وأخذ ينظر إلينا باستغراب، فقـال لـه: إنـهما العـاملان الصغيران اللذان سبق أن حدثتك عنهما.

Marfat.com

دخل الرجل، وتحركت بنا السيارة مرة أخرى إلى أن وصلنا إلى صندوق كبير له عجلات، فتوقف، وقال: أريد أن تنقلا البضائع إلى هذه المقطورة، وخرج (الرجلان)، وطلبا مِنِّي ومن ابن عمي الجلوس حتى عودتهما، وبعد برهة عاد الاثنان وطلبا مِنَّا مصاحبتهما إلى مكان نقل البضائع، وطلبا مِنَّا نقلها بهدوء، كي لا تسبب الإزعاج للسكان وتحرمهم من النوم، وأخذنا ننقل البضائع إلى أن امتلأت المقطورة، وخرجنا إلى المكان المحدد، ووجدنا امرأة واقفة، وعندما شاهدتنا، سارت مسرعة، وبعد قليل أقبل صديقنا بسيارته، وأخبرنا أنه ذهب إلى قضاء غرض له، وعاد ليأخذنا إلى المكان المعد للنوم.

وعندما ذهبنا إلى المكان، كان النوم ليس له علينا سلطان، وأعيننا ترفض الانغلاق، وبعد مجاهدة وبعد طلوع النهار، جاءنا النوم، واستمر بنا الحال، وتتكرر نفس الصورة في أماكن متعددة وهناك ارتباط وثيق بين ذهاب المرأة وحضور صديقنا الذي لم يفصح عن اسمه، بل قال: إن لنا في المدينة أرقاما، نتعامل مع الأرقام، ونحرص على الحصول على أرقام، ثم نموت ويموت معنا الرقم الذي يحمل شخصيتنا في بطاقاتنا الشخصية.

وحدثت أمور كثيرة، أدركنا بعدها أن المرأة هي صاحبنا الذي يلبس ملابس النساء، كي يراقب عملنا، واكتشفنا بعد فوات الأوان أن ما نعمله سرقة، وأن الشاي الذي نشربه كل يوم يوضع فيه منبهات لم نستطع بعد

Marfat.com

فترة الاستغناء عنها وتركها، وأصبحنا ننفق مـا نحصـل عليـه بإعطائـه لذلـك الرجل الذي ظنناه صديقاً، ثم أصبح لا يعطينا الشاي إلا بمبلغ كبير من المال.

ثم أخذ يدلنا على شيء آخر، وأخذ يعرض علينا أنواع المخدرات التي أصبحنا مدمنين عليـها، ننفـذ كـل مـا يأمرنـا بـه مقـابل ذلـك المخـدر الـذي نتناولـه، وأخذ يستخدمنا في أمـور كثـيرة، يسـتغل فيـها حاجتنـا إلى المخـدر لتنفيذ كل ما يريد، ولم نعرف أنه مخدر إلا بعد أن كانت تصدر منا حركات.

وقد شاهدنا أحد المارة في أحد الأيام–ونحن ننتظـر صاحبنـا في المكـان المعتاد فقال لنا: هل أنتما مجنونان أم ابتليتمـا بالشـراب المسـكر والمخـدرات؟ احتج كل واحد منا في البداية، ثم اكتشفنا ما نحن فيه في النهاية.

وذات ليلة–ونحن نحمل البضائع–أقبل صاحبنا وقال: اليوم نريـد أن نخطف امرأة الأمير، لأن السيد رقم (واحد) يريد أن نخطف لـه امـرأة الأمـير مقابل مبلغ كبـير مـن المـال، وسـوف يكـون لكمـا نصيـب كبـير، ورفضنـا في البداية، فـأقبل علينـا وهـو هـادئ الأعصـاب ويقـول: حسـناً سـوف أدعكمـا لتفكرا، ولن أشاهدكما إلا بعد ثلاثة أيام عقاباً لكما، وأركبنا بحـزم السـيارة، وأرجعنا إلى المخبأ المعتاد، ومكثنا ثلاثة أيـام، كدنـا أن نمـوت لعـدم إعطائنـا المخدر، وكانت المخدرات عندنا أهم من الطعام والشراب، وقد كان كـل أملنـا أن يجود علينا به.

Marfat.com

وبعد الأيام الثلاثة أقبل ومعه الرجل الذي شاهدناه في المرة الأولى عندما ركب معنا في السيارة وهما يضحكان، وأخذا يتكلمان في همس، ثم انفرجا في ضحك شديد، وهما ينظران إلينا على الأرض صريعين مثل الأموات، وأخذ الرجل يشعل غليونه؛ وينفث الدخان في وجوهنا وهو يقول: لقد أمرت صديقكما أن يعفو عنكما، فهل تقومان بما أريد؟ قلنا نعم مقابل قليل من المخدرات، واستجاب لنا، وأعطانا شيئاً يسيراً، ثم قام بحقننا بإبرة كانت معه وهو يقول: لولا أني أحبكما لتركتكما تموتان في مكانكما، ولكني رجل لا أهمل أصدقائي، ولا أتنكر لهم، رغم رفضهم لما أريد، ثم قام فجأة، وأطلق قطتين كانتا معه، وعندما تحركتا في الغرفة، أخرج مسدسه، وأطلق طلقتين لا صوت لهما جعلت القطتين صريعتين على الأرض، وأشعل غليونه مرة وقال: كان بإمكاني أن أجعل الطلقتين تستقران في قلبيكما الطيبين، ولكن كما قلت أحب أصدقائي، ولأبرهن لكما أنني قادر وبضغطة واحدة على الزناد أن أبعثكما إلى العالم الآخر أو بطعنة واحدة من هذا السكين! ولكن أحبكما يا صغيران، وأريد لكما المال الوفير.

Marfat.com

مكث الرجل معنـا، وبعـد سـاعتين أخـرج ورقـة مـن جيبـه، وقـال: ستجدان جميع التعليمات في هـذه الورقـة، وسـوف تكـون نهايـة الخطـة إمـا نجاحا لكما وحصولكمـا علـى المـال، وإمـا أن تكـون النهايـة لكمـا فتكونـا في القبرين المعدين لكما عند أول غلطة تقومان بها، ثـم أخـرج ظرفـاً، وقـال: إذا أكملتمـا الخطـة بنجـاح، افتحـا هـذا الظـرف، وسـتجدان فيـه صـورة المـرأة المطلوبة، ثم أعطانا ظرفا آخر وقال: إذا وجدتم المـرأة افتحـا الظـرف الآخـر، وستجدان خطة خطفها والهروب بها إلى المكان الـذي تجـدان وصفـه وطريقـة الوصول إليه وطريقة الخـلاص مـن العقبـات الـتي تواجـهكما بخطـوة ونجـاح العمل يعتمد على دقتكما.

خرجت أنا وابن عمي، وفتحنا الورقة وكانت الخطة تقتضي أن يفترق كل منا في طريق، وبعد منتصف الليل نلتقي في زقاق (الجزار)، كي نجـد مـن يعطينا بعض الإرشادات الـتي تحقـق المطلـوب، ويقـدم لنـا المسـاعدات الـتي تسهل من عملية خطف امرأة الأمير، وخرجت في الوقت المحـدد، واتجـهت إلى الزقاق المذكور، وقبل وصولي بقليـل شـاهدت صديقـي بـين رجلـين يدخـل سيارة أشبه ما تكون بسـيارات دوريـات الأمـن، توقفـت برهـة، وحـاولت أن أفكر، ولكن الأوامر أن لا أفكر، كل شيء معدّ، وأخذت أنظر إلى مجموعة من المنازل.

Marfat.com

وبينما أنا أنظر، وجدت لوحة موضوعة علـى الجـدار (استمر حسـب الخطة لا تتردد)، ذهبت السيارة، واستمررت في المشي، حتى وصلت إلى زقاق (الجزار) فوجدت في بدايته مصطبة عليها ورقة مكتوب عليـها: اجلـس هنـا، جلست وبعد برهة سمعت صوت توقف سيارة، رفعت رأسي لأرى سيارة نقل المخلفات، تقـف وتحمـل حاويـة المخلفـات ويـنزل اثنـان مـن عمـال النظافـة بلباسهم المميز، ويفرغان الحاوية، ويعيد أنها إلى مكانها السابق، ثـم يعـودان إلى السيارة، وبدأت السيارة تتحرك، وبمجرد ذهاب السـيارة، وجـدت عـامل نظافة بنفس الملابس التي شاهدتها قبل قليل وهو مقبل باتجاه الزقاق، وعندما قرب مني، ضحك، وما إن نظرت إليه إلا عرفته أنـه ابـن عمـي الـذي ركـب قبل قليل تلك السيارة.

التقت نظراتنـا معـاً، ومشـيت إليـه خطوتـين، ثـم انفجـرت ضاحكـاً واتجـهت إليه مباشـرة، فقـال لي : انتبـه لا تعمـل صوتـاً، وانظـر إلى الرجـل المتجه صوبنا! نظرت إلى الرجل، وهو رجل كبير في السن، معه عصا، يتوكـأ عليها، وباليد الأخرى شيء يحمله، وعندما قرب منا، سقط منه ذلك الشـي، فنظر إليّ، وطلب أن أعطيه ما سقط منه، وما أن انحنيت لأعطيه تلـك اللفافـة إلا وثعبان كبير الحجم يخرج من تلك اللفافة ويتجه صوبي!! كدت أموت من شدة الرعب! وارتبكت أشد الارتباك فقال لي: ألا تخجل؟ لمـاذا هـذا الخـوف وأنت مقدم على مهمة صعبة.

Marfat.com

نظرت إليه مرة أخرى، فإذا هو صاحبنا نائب الرجل رقم (واحد) الذي أطلق السكين من يديه بسرعة، فقتلت الثعبان ثم قال لي: هذه تجربة لك، كي أوضح لك أنك تجدني في كل وقت قربك، لا تخف من شيء، ونفذ المطلوب، وطلب مني خلع ملابسي واستبدالها بملابس عامل النظافة التي كان يحملها، ثم انصرف.

فأمسك ابن عمي بيدي وقال: قد أخطأت، فقلت له: أخطأت؟ أنا بشر أخاف! أنا بشر أبكي! أنا بشر أضحك! أنا بشر أجوع! أنا بشر أعطش! كنت مذهولاً، وقد شعرت بالخجل، فقال لي ابن عمي: لا تخجل من شيء، سوف أحكي لك كيف خفت عندما أوقفتني سيارة الدوريات الأمنية، وحملتني، وكدت أموت من شدة الخوف، ثم اكتشفت أن هذا العمل ضمن الخطة المرسومة، قلت: إذاً أنت الذي كنت بين الرجلين، عرفتك، وكنت في حيرة، قد أزلت حيرتي، فضحك وقال: واضح أن كل شيء مخطط له بشكل دقيق، وأنه حسب التعليمات يحرم علينا التفكير، وأن علينا التنفيذ فقط، وأخذنا حسب الخطة نسير في ذلك الزقاق، وإذا بنائب الرجل الأول يظهر مرة ثانية، ويقول لنا يكفي اليوم هذا التمرين، وغداً احضرا في نفس الموعد معا في نفس المكان، ثم التفت إلي، وقال: لا تكن جباناً وتخاف من ثعبان، فأردت أن أرد عليه، إلا أن ابن عمي قال لي: اصمت، فالسكوت خير، فسكتُّ على مضض.

Marfat.com

وفجأة أخذت أبكي، وتذكرت الشقاء الذي أنا فيه بعد أيام السعادة في قريتي التي تركتها، وأتيت إلى المدينة من أجل السعادة فكان الشقاء ومن أجل الصحة فكان المرض ومن أجل الحرية فكانت العبودية، نعم قد أصبحنا مثل العبيد بيد العصابة، تحركنا كيفما شاءت، وتوجّهنا كيفما أرادت، لا رأي لنا. كنّا أحراراً في قريتنا تلك القرية الجميلة، تلك القرية الخضراء، تلك القرية الآمنة، تلك القرية المطمئنة، تلك القرية المحبوبة، نعم كل سعادة في داخلي فهي من بقايا تلك القرية التي لا نستطيع الذهاب إليها، كي لا تذهب العصابة، وتفضح أمرنا عند أهلنا وأبناء عمومتنا، وتدل رجال الأمن على مكاننا، فنسجن أو قل: نقتل! لا نعلم ما هو المصير! وأخذت أتعجب! أول ما جئنا المدينة كنا نخاف أن يكتشف أمرنا فنعاد إلى القرية، واليوم نتمنى العودة إلى القرية ولا نجد طريقة آمنة لعودتنا لقريتنا الجميلة.

ولا أريد أن أطيل عليك بتفاصيل ثلاثة أيام في الخطة، نخرج كل يوم دون أن نعرف بقية الأمر المطلوب، وفي اليوم الرابع قدم لنا ملابس حرس ولكل واحد منا مسدس مع بطاقة قد جهزت كي تثبت أننا حرس في قصر الأمير، ثم أمرنا أن نذهب إلى زقاق (الجزار)، ونهجم على رابع بيت بعد العلامة السوداء التي سوف نجدها، ونقوم باختطاف ابنة صاحب المنزل، وهو رجل كبير في السن، كان ابنه من أفراد العصابة، ثم خرج عن طوعهم، ويريدون عودته لطريق خطف أخته، وتكون تجربة لهم حسب الخطة قبل

Marfat.com

خطف امرأة، الأمير وذهبنا إلى زقاق (الجزار)، ووجدنا العلامة السوداء، ودخلنا المنزل، وباستخدام التخدير تم خطف ابنة صاحب المنزل.

هذا ماحدت يا صديقي باختصار شديد، وقد قمنا باختطاف ابنة صاحب المنزل وهي نائمة، وعدنا إلى مقرنا حسب الخطة، ووجدنا الرجل الثاني بانتظارنا، وأمرنا بأن نبقيها لدينا إلى أن يعود إلينا لتنفيذ بقية الخطة، كانت الفتاة جميلة جداً، بلباس في غاية الاحتشام وهي نائمة. وبعد ساعات قامت وهي في أشد حالات الاستغراب من مشاهدتنا! وحاولت أن تستر وجهها بيدها، ثم قالت: ألا تخافان من صاحب الأمر؟

فضحكنا! وقلنا لها: أنت صاحبة الأمر على قلوبنا، وأردنا أن نمازحها، ولم يوقفنا إلا قولها: يا صاحب الأمر، يا قدير، أنا ابنة عبدك المسكين! إكلئني برعايتك، واحفظني من شرهم، إليك التجأت وعليك اعتمدت، فلا تخيبني.

ثم قالت: أرجو كما، قبل أي شيء أريد أن أدرك صلاة الصبح، فبحمد الله لم تفتني خلال عشرة أعوام ولا مرة واحدة إلا اليوم.

وأردت أن أتهكم من أمرها، إلا أن ابن عمي هذا الذي أمامك أمرني بأن أتركها وشأنها، فتركتها وأنا في أشد العجب من رباطة جأشها وقوتها، حيث قامت دون سؤال، وأخذت غطاء خفيفاً وَجَدَتْهُ قريباً منها، فوضعته على رأسها، ونظرت يمنة ويسرة، واتجهت إلى الحمام، وقامت تتوضأ وطلبت

Marfat.com

معرفة القبلة، فأشرنا إلى جهة القبلة التي ظننا أننا نسيناها، إذ لم نعرفها إلا في الأيام الأول عندما جئنا من القرية وطلبنا أن نصلي. ثم كان ما كان كما قصصت لك، فمع الانحراف تركنا الصلاة، وأخذنا ننظر إليها وهي تصلي بكل خشوع، وبعد الصلاة أخذت تتجه إلى الله بالدعاء، وابن عمي قد بهره جمالها، وتعلق قلبه بها، وازداد تعلقاً بها وهي منصرفة إلى خالقها.

لم أعلم سر الخوف الذي كان يمنعني من لمسها إلا بعد أن هداني الله إلى الطريق القويم، فقد كانت ترفض أن تشرب الماء أو تأكل الطعام الذي أقدمه لها، وأصرَّت أن تُعطِينَا بعض المال الذي كان في ملابسها عُندما تم خطفها، لأن مالها مالٌ حلال، ولا تريد أن يدخل جسمها مالٌ حرام.

أخذت أتعجب من أمرها! امرأة لم تسألنا عن شيء! وكل همها هو البعد عن الحرام! لا تخاف من شيء! وكانت في الليل تذكر الله وتستغفر في الأسحار، ثم تقول:..

قد كفاني علمُ ربِّي من سؤالي واختياري[1]
فدعائي وابتهالي شاهد لي بافتقاري
فلهذا السر أدعو في يساري وعساري
أنا عبد سار فخري ضمن فقري واضطراري
قد كفاني علم ربي من سؤالي واختياري

---

[1] أي أن علم ربي بحالي ويقيني بعلمه ﷻ جعلني لا التجيء لمخلوق, ولا أسأل إلا الله فكان التوجه إليه بالدعاء والابتهال والافتقار.

Marfat.com

يا إلهي ومليكـــي أنت تعلم كيف حالـي
وبما قد حلَّ قلبـي من هموم واشتغالـــي
فتداركني بلطـــف منك يا مولى الـموالـــي
يا كريم الوجهِ غثني قبل أن يفنى اصطباري

وتأخذ في تكرار البيتين الأخيرين عدة مرات وهي مستغرقة في البكـاء، ثم تعود تقول:

قد كفاني علم ربـــي من سؤالي و اختياري
يا سريع الغوث غوثاً منك يدركنا سريعـــا
يهزم العسر و يأتـــي بالذي نرجو جميعـاً
يا قـريباً يا مجيبـــاً يا عليماً يا سميعـــاً
قد تحققت بعجـــزي وخضوعي وانكساري
قد كفاني علم ربـــي من سؤالي واختيـاري

ثم تعود وتبكي بحرقه وتقول:

لم أزل بالباب واقـف فارحمن ربي وقوفي
وبوادي الفضل عاكف فأدم ربي عكوفـــي
ولحسن الظـــن لازم فهو خلي وحليفـي
وأنيسي وجليسي طول ليلي ونهـــــاري

وتبكي مرة أخرى بحرقة، وتكرر الأبيات الثلاثة الأخيرة، ثم تعود وتقول:

Marfat.com

قد كفاني علم ربـــــي من سؤالي واختيــاري
حاجة في النفس يا رب فاقضها يا خير قاضي
وأرح سري وقلبـــــي من لظاها والشواضـي
في سرور وحبـــــور وإذا ما كنت راضـي
فألهنا والبسط حالـــي وشعاري ودثـــاري
قد كفاني علم ربـــي من سؤالي واختيـاري

وأخذت تكرر هذه الأبيات، وابن عمي هذا يكتب ما تقول وقـد اشـتد تعلق قلبه بها.

ومرت أيام، ولم يرجع الرجل، وفي الليلة الخامسة جـاء رجـل وأخـذ يدق الجرس بشدة، ولم نعرف الرجل، فأخذ ابن عمي المسدس، وذهب لفتـح الباب، فكان الداخل هو الرجل الآخر الذي كُنَّا نشاهده مـع صديقنـا، وأخـذ يقول: قد قبضت الشرطة على صديقكما، وقد يدل عليكما، فينبغي الهرب في الحال، وأمرنا أن نتخلص مـن الفتـاه بقتلـها، وأخرجـت مسدسـي، فـالتفت الرجل، وقال: على عجل قبل أن تصلنا الشـرطة سـوف أتـولى قتلـها وأخـرج مسدسه وأطلق النار.

فما كـان مـن ابـن عمـي إلا أن رمـى بنفسـه علـى الفتـاة كـي ينقذهـا فأصابت كتفه رصاصة وفي رجله رصاصة أخرى.

Marfat.com

وأصابت الرصاصة الثالثة الفتاة التي سقطت دون أن تصرخ، وكان لسانها يكرر ويقول: يارب يارب يارب:

في سرور وحبور وإذا ما كنت راضي

فالهنا والبسطُ حالي وشعاري ودثاري

ولم أجد نفسي إلا مطلقا النار على الرجل الذي خر صريعاً، وتوجهت إلى ابن عمي الذي أقبل، والدم ينزف من كتفه ورجله، والفتاة تنزف، وكان همه سلامة الفتاة التي تعلق قلبه بها.

وقطع الصمت صوت رجال الشرطة وهم يقولون: سلِّم نفسك، فالدار محاصرة، فالتفت ابن عمي إليها، وقال لها: أحبك أحبك لا تموتي أرجوكِ.

فقالت له: بصوت منخفض مرهق: أحبك الله، أحبك الله، وهداك إلى طريق الخير، سلم نفسك واستغفر ربك.

فقال لها كيف ألقاك؟

فقالت له: عند مولاي ومولاك.

وهما في الحديث دخلت الشرطة وقبضت علينا ولا نعلم ما حال تلك الفتاه، التي ما زال ابن عمي لا يستطيع أن ينساها، والتي إن سأله أحد عن عرجته، أخذ يقص القصة كاملة، ويبكي ويبكي بحرقة إلى أن تتفطر كبده وتحمر عيناه وينقلب حاله، لذلك فأنا حريص على أن لا يسأله أحد عن عرجته.

Marfat.com

فكانت هذه القصة هي بداية الصلاح، وكان هذا السجن هـو بدايـة الانطلاق، وكانت هذه الخلوة هي رجوع النفس إلى الله، وكان ذلك الدعاء من فم تلك الفتاة الطاهرة سبباً في وقوع العصابة.

فالدعاء لـه أسرار لا يدركها إلا مجـرب، ولا يستوعبها إلا مـن نَـوَّرَ الله قلبه، فأدرك أسـرار الدعـاء، وأنـه نعـم الوجـاء، وأنـه الحصـن الحصـين المقرب إلى رب العالمين، وقد كنت في أشد العجب أنا وابن عمي مـن تلـك الفتاه، وكنا نظن أن ما كانت تقوله من شعر هو لهـا، إلا أن الشيخ عبـد التواب عندما أخذ ابن عمي يقص عليه القصـة ويقـول لـه ذلـك الشـعر، أخبره الشيخ أن تلك القصيدة التي كانت تردّدها الفتاة هـي للشـيخ عبـد الله الحداد رحمه الله، وأكمل لـه القصيدة فكتبتها عنه مرة ثانيـة. آسـف يا أخي، قد أطلت عليك، وأظنـك في حاجـة إلى الطعـام، فقـد وصلنـا إلى مطعم السجن.

Marfat.com

أخذ (راضي) يتأمل ما جرى، وكيف تمت هذه الأحداث وكأنها أقرب إلى الخيال، كل شيء انتهى فجأة. لا، لا، لا، ليس فجأة، بل كما قال الشيخ عبد التواب: كل شيء بقدر وبحكمة من قِبَل الخالق جل وعلاَ، فهو المدبر لكل ما في الكون، فقد جعل هذه الأسباب لإنقاذ الرجلين ويكون السجن هو محطة تصحيح لأوضاعهما السابقة، ومرحلة للعودة لطريق الخير، فيعودان إلى الله فيقبل الله عودتهما، أو قل توبتهما، فيتوب عليهما.

وأخذ يتذكر قول الشيخ عبد التواب: إن الله يعود بالخير على من عاد إلى طريق الخير، وأخذ صوت الشيخ عبد التواب يتردد في داخل (راضي)، وأخذ يتخيله وهو بوجهه المشرق ولحيته البيضاء التي تكسبه الهيبة والوقار ويرتل قول الله عز وجل: (أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ): (سورة التوبة: ١٠٤).

ويقول: هذه الآية المباركة خطاب موجه إلى فئة من البشر من المؤمنين بالله تعالى الذين عادوا إلى الله واعترفوا بذنوبهم، وقد خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فكان من كرم الله أن تكفل لهم نتيجة توبتهم بالمغفرة لأنه غفور رحيم يتقبل توبتهم ويُرْبي صدقاتهم، لأن من صفاته أنه سبحانه تواب رحيم، فمن رحمته أنه أمر نبيه محمداً ﷺ أن يأخذ من أموال المؤمنين صدقة كي تطهرهم وتزكيهم، كما أمر الحبيب المصطفى ﷺ أن يصلي عليهم لأن صلاته سكن لهم، فصلاة الحبيب المصطفى ودعاءه لهم تهدأ من روعهم، وتذهب

Marfat.com

الخوف الذي نـزل بـهم. ثـم كـان التطمـين مـن رب العـالمين بإخبـارهم بأنـه سبحانه يقبل التوبة من عباده، وأنه هو التواب الرحيم، وهو تطمـين مـن رب العالمين لعباده المقصرين العائدين إلى رحابه، وبيان لهم أنهم بعودتهم وبتذللهم بين يدي خالقهم، استحقوا عطفـه وكرمـه، ففتـح لهـم بـاب الرجـاء والأمـل لحسن سريرتهم وصدق عملـهم، وأخـذت المواقـف ترجـع إلى ذاكرتـه، وأخـذ منظر الشيخ عبد التواب ويده الحانيـة كـأن دِفأهـا مـا زال علـى كتفـه، وهـو يقول: يا (راضي) ياولدي إن الله يقبل التوبة إذا كانت عن قناعـة ومـن قلـب صادق نادم راجع إلى خالقه ومولاه.

ثم أخـذ يتذكـر قـول الشـيخ وحديثـه عـن عِلْيَـةَ القـوم السـادة النجبـاء أصحاب الحبيب ﷺ ويقول لـه: يا راضي أتعرف قصة الثلاثة الذين خلفوا؟

فقلت لـه لا أعرف قصتهم.

فقال: هم الذين قال الله في حقهم: ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِيـنَ خُلِّفُـواْ حَتَّـى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾: (سورة التوبة: ١١٨).

ثم أخذ يوضح لي أنها نزلت في بيان توبة الله على المؤمنين من أحباب رسول الله ﷺ وهم أصحاب الوجوه النضرة ممن اصطفـاهم الله لصحبـة حبيبـه محمد ﷺ، وهم الجماعة الذيـن اشـترى الله منـهم أنفسـهم وأموالهـم ووعدهـم بالجزاء العظيم وهو الجنة، لذلك عندما حدث منـهم الـتردد في غـزوة العسـرة

Marfat.com

وهي غزوة تبوك، وتخلف بعضهم عن الغزو في سبيل الله، تجاوز الله عنهم، لصدق نواياهم إخلاصهم في توبتهم، وخص الثلاثة رضي الله عنهم، وهم الذين لم يذهبوا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، واعترفوا بخطئهم، وندموا على ما فعلوا، فكانت النتيجة أن رزقهم الله الإنابة والرجوع إليه، لأنهم عزموا على الخروج مع رسول الله ﷺ في الشدة والرخاء، وفي اليسر وفي العسر، وفي الحر وفي البرد، وفي أي وقت، وعلى أي حال من الأحوال.

أخذت هذه الصور تمر على (راضي) ولم يقطع تفكيره إلا صوت (صادق) ومعه الرجل الأعرج وهو يقول: قد ابتعدتم كثيراً، وتأخرتم في الوصول.

فقال ساخط: قد كان حديثاً جميلاً، سوف أخبرك به، كي تأخذ منه درساً، بل دروساً تستشفُّ من خلالها كرم الله، وجود الله، وتدبير الله، فهو المدبر لهذا الكون.

صادق: قد طلبنا لكما الطعام، أرجو أن ينال قبولكما، ضحكوا جميعاً وأقبلوا على الطعام، وبعد الانتهاء شكروا الله على ما أعطاهم، وقاموا جميعاً ليذهب كل واحد منهم إلى مكان نزوله في السجن.

نعم، مكان النزول، فلم يعد يطلق على الزنزانة (زنزانة)، ولا على المساجين (مساجين) بل أصبح يطلق عليهم نزلاء وأماكن النزلاء، ومكتبة النزلاء ومسجد النزلاء، نعم، أصبح السجن داراً للإصلاح ومكاناً للتوقف للرجوع إلى الطريق الصحيح، فما يقام فيه من محاضرات ومسابقات يفتح آفاقاً

Marfat.com

جديدة. فالحمد لله، كرَّر (صادق): الحمـد لله، الحمـد لله، الحمـد لله، لقـد سره التطور الذي حدث في السجن، لا لا لا، دار النزلاء الذين سوف يعودون قريباً للمجتمع أقوياء، عقلاء، نصحاء، يخدمون الأمة، ويقدمون خدماتهم للمجتمع.

التفت (صادق) إلى (راضي) وقال: يـا راضـي، انظـر كيـف أصبـح هـذا المكان مكان عطاء وصبر على قضاء الله، نعم، نعم، قد أصبح مكانـاً للإصـلاح ولتعليم التكاليف والحدود والآداب والأخلاق، أتذكر يـا راضـي السـورة الـتي أنزلها الله وفرضها؟

راضي: نعم، إنها سورة النور، كما قال الشيخ الوقور عبد التواب.

صادق: أحسنت يا راضي، قد بدأ الحق سبحانه وتعـالى هـذه السـورة بتوضيح أنـها سورة أنزلها وفرضها الله، كما قلتَ، أي: جعـل فيـها تكـاليف وحـدوداً، وآدابـاً، وأخلاقـاً تربـي المؤمـن وتقربـه إلى الله، وأن هـذه الآيـات الكريمات واضحات لكل من يريد أن يتذكر أوامـر الله ونهيـه، وكـانت بدايـة الأوامر هي توضيح حد الزاني غير المحصن المتعدي على حدود الله، وأن هذه الحدود من حكم الله، وأنه يجب أن يشهد هذا العذاب طائفة من المؤمنين، ثم وضح سبحانه تحريم زواج المؤمن من المشركة التي لا دين لها كالمجوس، ومن قال لا إله والحياة مادة، ويستثنى من هذا الحكم أهـل الكتـاب بنـص كتـاب الله، كمـا وضـح سـبحانه وتعـالى تحريـم الـزواج مـن الزاليـة إلا بعـد توبتـها واستبرائها بحيضة على قول أكثر أهل العلـم، ثـم انتقلـت الآيـات الكريمـات

Marfat.com

لتوضح حد القذف ثمانين جلدة، وأن العدالة تنتفي عنهم، فلا تقبل شهادتهم أبداً، إلا الذين تابوا من بعد وأصلحوا فإن الله غفور رحيم، ثم وضح جزاء من يرمي زوجه بالخيانة دون بينة أو شهود أربعة، فوضع لهم حلاً لهذا الأمر بأن يكون اللعان، وهو أن يشهد الفرد أربع شهادات بالله على صدق دعواه، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ويدرأ العذاب بواسطة الشهادة بالله من قبل الزوجة بكذب الزوج أربع مرات، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان الزوج من الصادقين، ثم وضح في قوله: (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ) (سورة النور: ١٠). أنه لولا فضل الله ورحمته لما ألهم عباده التوبة، وهي الآية الوحيدة التي اقترنت فيها التوبة بالحكمة. فوضح سبحانه أنه لولا فضل الله ورحمته وأن الله تواب حكيم، أي أن هذه الحدود والأوامر والنواهي والحلول الموضوعة هي من حكمة الله العليم، فهو وضع هذه الأوامر، ووضع ما يحمي المجتمع من المنكرات، لحكمة تقتضيها عنايته وتوفيقه، بأن جعل الفرد يعود إلى الله، ويعلن التوبة من الفواحش التي وقع فيها.

راضي: صدق الله العظيم. أقسم لك أن كل كلمة من كلمات الشيخ عبد التواب أصبحت منقوشة في قلبي وعقلي، أفكر فيها، وأحاول ما استطعت أن أهتدي بكلامه، لأن كلامه مرتبط بالدليل الشرعي من كتاب الله أو من هدي سيدنا رسول الله ﷺ، وأنا أتذكر دائماً قوله الذي يرويه عن النبي ﷺ الذي

Marfat.com

معناه: أن من تكفل ما بين لحييه وما بين فخذيه، تكفل رسول الله ﷺ له الجنة. وهو الصادق المصدوق. كذلك تلاوته لقول الله سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ) (سورة الحجرات: ١٢). وهي آية في سورة الحجرات، التي تبدأ بعدة آيات تؤكد على الأدب مع رسول الله ﷺ في الأقوال والأفعال والسلوك، ثم تنتقل من علاقة المسلم مع سيد البشر ﷺ إلى علاقة المسلم مع المسلم وحث المسلم على التثبت وعدم الحكم بجهالة، ثم بين ما تفضل به عباده من فضله ونِعَمِه المنطلقة من علمه وحكمته، التي تقتضي الإصلاح بين المؤمنين، والوقوف مع الحق ومناصرته، ووضع القاعدة بأن المؤمنين إخوة، وطالبهم بأن يصلحوا بين إخوانهم ويتقوا الله، ثم بين أن هذا العمل يقود إلى نزول رحمة الله.

وتستمر الآيات في بيان ضرورة عدم السخرية والتنابز بالألقاب، وطالب المجتمع المؤمن باجتناب كثير من الظن، ثم وضح أن بعض الظن إثم، ووضح بعض الركائز الأساسية للمجتمع المسلم النظيف، فنهى عن التجسس وعن غيبة بعضهم بعضاً، وطالبهم بتقوى الله، ثم وضح أن الله توابٌ رحيم. وبهذا يتبين أن أوامر الله لأصحاب رسول الله ولكل المؤمنين، هي تنظيم للمجتمع

Marfat.com

المؤمن، وأن هذه الأوامر ينبغي على المؤمن أن يتقي الله في تنفيذهـا، وأن هـذه التقوى تقود إلى التوبة ورحمة الله.

صادق: ما شاء الله يا (راضي): فقد أصبح لديك علـم بالسـنة والقـرآن، وأصبح قلبك متعلقاً بالرحمن، هنيئاً لك يـا (راضـي) علـى مـا وهبـك الله مـن الفهم لكتاب الله الذي فيه النظام الكامل للحياة السعيدة، وهـي الحيـاة الـتي تطهر المجتمع من الفواحش، وفيه الحدود لحماية الخلق، وفيـه رسـم طريـق سعادتهم في الدنيا والآخرة، فإذا نظرت إلى سورة (النساء)، لوجدت في الآيات الأولى من هذه السورة المباركة ما يوضح ويبين ما سبق أن أكدته، وهو أن نظام الإسلام قوي في تطهير المجتمع من الفواحش، وليس هذا فحسب، بـل يضـع الحدود لحماية الإنسان مـن الفواحـش، ولذلـك يـا (راضـي) تجـده قـد شـرع العقوبة، وأمر بالكف عن الفواحش، والرجوع إلى الله بالتوبـة الصادقـة الـتي تقود الفرد إلى إصلاح النفس، لأن الله تواب رحيم.

وفي الوقت نفسه يحث المجتمع على أن لا يتسامح مـع الجريمـة، أو يرحم القائم المجـاهر بالفاحشـة، بـل تكـون الرحمـة للتـائبين والراجعـين إلى الطريق القويم فيجـب علـى المجتمـع قبولهـم، والإعـراض عـن إحراجـهم أو إيذائهم، ومساعدة العائدين إلى الله على الانخراط في المجتمـع، والعيـش فيـه وفق الضوابط الشرعية، وأن يوفر لهم المجتمع الحياة الكريمة الشريفة كـي لا ينتكسوا ويعودوا لارتكاب الفواحـش والإجـرام مـرة أخـرى، أي أن المجتمـع

Marfat.com

يحاول جاهداً أن يتضافر بكافة أفراده ومؤسساته على استيعاب كل من عاد إلى الله ورجع عن طريق الغواية، ويكون لديه قبول لتمكينهم من الحياة الشريفة، وتيسير سبل العيش الكريم الذي يصون كرامة المسلم.

جميع هذه الأمور يا (راضي) ينبغي أن تكون وفق أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن الله عز وجل قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ (سورة النساء: ٦٤).

لذلك يا (راضي) ينبغي لكل مسلم أن يدرك فضل رسول الله ﷺ، وأن طاعته واجبة على كل من يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، لأن طاعته من طاعة الله، فهو الطريق الموصل إلى الله، لذلك كان التوجيه لكل من ظلم نفسه أن يستغفر ويعود إلى الله عن طريق رسول الله ﷺ، فإن عاد من خلال طريق رسول الله ﷺ، فإنه سوف يجد أن الله قبل عودته، فيجد الخالق جل وعلا تواباً رحيما، وهي آية توضح أن طريق التوبة هي طاعة رسول الله ﷺ في كل أمرٍ أمرَ به، والبعد عن كل ما نهى عنه ومنع، لأن الله لم يرسل رسولاً إلا ليطاع، وأن من ظلموا أنفسهم وابتعدوا عن طاعة رسول الله ﷺ ثم عادوا واستغفروا الله، فإنهم سوف يجدون القبول من الله وتنالهم العناية الإلهية فيجدوا الله تواباً رحيماً، وذلك فضل وكرم منه سبحانه وتعالى.

Marfat.com

وآخر الآيات في هذا الموضوع يا (راضي) هي التي وضَّحَهَا الشيخ عبد التواب في سورة النصر من قول الله عز وجل (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) (سورة النصر: ٣). وهي كما أخبر الشيخ ثالث الآيات التي وردت في القرآن الكريم بلفظ (تواباً) وهي أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ابتداءً وهو في الوقت نفسه أمرٌ لكل مسلم بالتسبيح وبالحمد والاستغفار في جميع المواطن وبخاصة عند دنو الأجل وظهور علاماته، فمن هذه السورة الكريمة فهم سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ نعيا لرسول الله ﷺ ودنو أجله ﷺ، كما أنه يؤخذ من هذه السورة التأكيد على حمد الله وتسبيحه واستغفاره في لحظة انتصار الإنسان، نعم يا (راضي) نعم يا (راضي)، فالتسبيح والحمد والاستغفار في حالة الانتصار، فلنسبح الله، ولنحمد الله، ونستغفر الله، ونشكر الله، فقد مكننا بفضله ورحمته من السيطرة على هوى أنفسنا، فتغلبنا على شهواتنا، ونسأل الله أن يمكننا من التغلب على الشيطان الرجيم.

Marfat.com

استمر الحوار بين الصديقين إلى أن أدركهم النوم، وأثناء النوم شاهد (راضي) نفسه يطير بجناحين، ينتقل من مكان إلى مكان في حيوية ونشاط، في سعادة مطلقة، حيث غمرته السعادة في مكان لم يتصور في يوم من الأيام وجود مكان مثله، أرض بيضاء مثل الفضة، حصباؤها من اللؤلؤ والمرجان، وتربتها المسك، ونباتها الزعفران، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، لا يستطيع أن يصف جمال أشجارها، ولا طيب هوائها، وجمال عيونها وأنهارها، قصورها عاليات، وسكانها كأنهن الأقمار، ثم شاهد قبة من لؤلؤة بيضاء، أبوابها من الذهب، لم يستطع أن يعد أبوابها، وعندما دخل من أحد الأبواب. وجد أسِرَّة من عنبر، مرصَّعة بالدر والجوهر وصوتا يقول: مرحباً بالتائب، مرحباً بالعائذ، مرحباً بالمستغفر في الأسحار.

التفت (راضي)، لم يشاهد أحداً، فأخذ ينادي: من أين الصوت؟ فيجيبه صوت جميل: اشرب من نهر الماء، أو من اللبن، أو من العسل، أو من التسنيم، إنك من عباد الله الصادقين.

يقول راضي: أنا مذنب، أنا عاصي، فقد قمت بكثير من الموبقات وما يغضب الخلاَّق.

فيجيبه الصوت: إن الله هو الهادي إلى الصراط القويم، حيث كان مكانك في نار السعير، فوفقك القدير سبحانه، ولو نظرت إلى المكان الذي كان لك قبل رحمة الله وتوفيقه لك للتوبة والاستغفار، لوجدت أنه في النار، إنه في

Marfat.com

النار، اتبع هذا الضوء لتشاهد فقط ذلك المقام، فتحمد الملك العلام، فأخذ (راضي) يتبع الضوء إلى أن شاهد مكاناً كئيباً، تتعالى منه أصوات البكاء والنحيب، لا سامع لرجائهم ولا مجيب، جراحهم نتنة، ولا طبيب، تُشوى فيه الوجوه، في مدينة كلها نار، ليس لها قرار، شرابها غِسلين وغَسَّاق وقَطِران، سكانها يعانون صنوف العذاب، فيها حيات مثل النخل الطوال، وعقارب كأمثال البغال، بها صور لوجوه باكيات حزينات، تنادي فلا مجيب، عليهم سراويل من قطران وفي أعناقهم السلاسل والأغلال، وجوههم محترقة، وألسنتهم مندلعة على صدورهم، جباههم مُسْوَدَّة، يُضرَبون بمقامع من حديد وهم مصفدون بالأصفاد، والحيات مطوقات بأعناقهم، تلدغهم، فتهري لحومهم، كلما ضربوا، تلهب في أجسادهم النار، وقد فتحت أفواههم، ولهيب النار يخرج من بطونهم، يسقون من القيح والصديد. وسمعت صوتاً يقول: هذا مكانك!

فأخذ (راضي) يقول: يا تواب، قد تبت إليك، تبت إليك، وأخذ يبكي بحرقه ويقول: لا أطيق النار، لا أطيق النار، يا غفار، عبدك لا يطيق النار، وأصبح جسمه يرتعد من شدة الخوف، وصوته ينادي ويقول: أنقذني يا الله، يا الله، يا الله، ويجهش في البكاء، ولم يفق إلا و (صادق) يحتضنه ويضع رأسه على صدره ويقول له: ما بك يا (راضي) هل أنت مريض.

Marfat.com

راضي: يبكي وبحرقة شديدة، ولسانه لا يستطيع أن يخرج حرفاً واحداً، وعيناه جاحظتان، وهو يقول: النار، النار، النار، وأصابه تشنُّج! وتيبسَّتْ أعضاء جسده! فقام (صادق) مسرعاً نحو الشيخ عبد التواب وأخبره بحال (راضي) فأقبل الشيخ مسرعاً، وأخذ يرتل القرآن، وينفث عليه بخواتيم سورة البقرة والمعوِّذات، وما أن شاهد (راضي) الشيخ عبد التواب وسمع صوته يرتل القرآن هدأت نفسه، وخفت صوته، فأخذ يهدئ من روعه، ويقول له: ما بك ياولدي؟ فكان لكلمة (ياولدي) وقع عجيب عليه، جلب له الطمأنينة، وأخذ يتنفس الصعداء، ويقول: الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله. أنا هنا، بعيد عن النار، تبت لله رب العالمين، تبت لله رب العالمين.

-قال الشيخ عبد التواب: أبعدك الله ياولدي عن النار، نعم ياولدي، فقد أقبلت على الله، وأسال الله لك التوفيق والرشاد، وقد تبت ياولدي، والتوبة في اللغة هي الرجوع من الذنب، وأنت رجعت عن ذنوبك، والتوبة في الشرع: هي الرجوع عن الأفعال والأقوال المذمومة إلى المحمودة (الرازي، ١٤١٢هـ: ٤).

قد نفّذت ياولدي أمر الله بعودتك إليه، لأن التوبة حكمها واجب على كل مؤمن ومؤمنة، لقوله سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا) (سورة التحريم: ٨). ولقوله سبحانه وتعالى: (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (سورة النور: ٣١).

Marfat.com

واعلم ياولدي قوله تعالى (إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ) (سورة البقرة: ٢٢٢) والتوبة كما –قال الرازي: (الرازي، ١٤١٢هـ: ٤–٥).

- ◆ التوبة هي الندم على ما مضى، والدوام على ما صفا.
- ◆ التوبة هي الندم على ما فات، وإصلاح ما هو آت.
- ◆ التوبة هي توبة عن الزلات.
- ◆ التوبة هي توبة عن الغفلات.
- ◆ التوبة هي توبة عن رؤية الحسنات.

وبذلك تجد ياولدي أن التوبة علم وحال وفعل.

فأما العلم، فإنه يحدث عندما يعرف الإنسان ضرر الذنوب، وأنها حجاب يحجب العبد من القرب إلى طريق الخير، فإذا وجدت ياولدي (راضي) هذه المعرفة، وتألم القلب وخاف من سوء العاقبة وفوات المحبوب، فإن الندم إذا استولى على الإنسان، تحركت معه إرادة التوبة، وبذلك يقدم العبد على ترك الذنب في الحال، ويعقد العزم على عدم العودة، وتلافي ما مضى (الغزالي، ١٤٠٦هـ: ٢١٧).

وبذلك تدرك ياولدي أن للتوبة مقدمات:

الأمر الأول: انتباه القلب من رقدة الغفلة.

الأمر الثاني: هجران رفقاء وخلطاء السوء، لأنهم يعوقون الفرد عن التوبة (الرازي، ١٤١٢هـ: ٨–٩).

Marfat.com

(راضـي): الحمـد لله، أرجـو أن أكـون قـد حققـت مقدمـات التوبـة، ياوالدي (الشيخ عبد التـواب) قـد شـاهدت الجنـة والنـار في المنـام، ولم أكـن أتخيل منظر الجنة ومنظر النار بهذه الكيفية، وأخذ (راضي) يقص على الشيخ ما شاهد والشيخ عبـد التـواب يسـتمع، ثـم أجـهش في البكـاء، وأخـذ راضـي وصادق يبكيان، ثم أخذ الشيخ عبد التواب يقول: اللهم ألهمنا صـدق التوبـة، اللهم اغفرلنا كل حوبة، اللهم إنا نستغفرك ونتوب إليـك، فـاغفر لنـا، وتـب علينا، إنك أنت التواب الرحيم.

ثم قال: (يا راضي) إن ما شاهدته هو جزء من صفـات النـار والجنـة. اعلم ياولدي بـأنك أنـت وأخـاك صـادق، قـد سلكتما طريـق العـودة إلى الله، رحمـني الله وإياكمـا، وجعلـني وإياكمـا مـن التـائبين العـائدين الصـادقين في التوبة، ليزيل الخالق الكريم عني وعنكما كل حوبة.

اعلم يا (راضي) ويا (صادق) أن هناك عدداً من الأمور علـى المسـلم أن يضعها نصب عينيه عندما يتوب إلى الله، وهي أمور تحتاج إلى تفصيـل، ولـن أتمكـن في هـذه العجالـة مـن توضيحـها، ولكـن يمكـن أن أقـدم لكمـا نقاطـاً مختصرة، توضح لكما بعض الأمور المتعلقة بالتوبة كي تكـون مفـاتيح، تسـاعد العائد على ولوج باب التوبـة برؤيـة واضحـة، وفكـرة مسـتقيمة، وعـزم علـى الاستمرار، متصل برجاء أن يكون التيسير من صاحب التدبير سبحانه وتعالى، ومن هذه الأمور التي يجب أن نضعها نصب أعيننا هـي مـا سبق أن شـرحته

Marfat.com

لكما من خلال الآيات الكريمات، وقد أخبرتماني أنكما استوعبتما مفاهيم تلك الآيات، فمفاتيح الوصول إلى مفهوم التوبة هي:

١. أن التوبة تيسير من الله عز وجل.

٢. أن التوبة لكل من ظلم نفسه وخالف أمر الله عز وجل.

٣. أن التوبة عن كل قصور قد يحدث في العمل، وأن كمال العمل مطلب، وأن ابن آدم خطّاء، وأن الهداية من الله عز وجل وخير الخطائين التوابون.

٤. أن التوبة تكون من الجاهل والعالم، لأن من يكتم الخير ويحجب العلم الذي أنزله الله –وهو العلم الذي يقود إلى الهداية– يستحق الطرد من رحمة الله، إلا إذا تاب، أي أنه رجع لطريق الله، وأصلح ما أفسده، وبين ووضح، أي أنه يعترف بجرمه، ويقلع عنه، ويعرف مضاره، ويبينه لخلق الله لينال التوبة من الله.

٥. أن التوبة عن ذنب يقوم به مؤمن، الذي خلط عملاً صالحاً بعمل سيء فندم، فيجب عليه عدم القنوط من رحمة الله، لأن التوبة حاصلة بكرم الله إذا كان القلب صادقاً نادماً راجعاً إلى خالقه سبحانه وتعالى.

٦. أن التوبة تكون ممن نقض العهد مع الله، فنقض العهد يستوجب التوبة، والتوبة لا تكون إلا بتوفيق من الله عندما يتوب على عباده فيتوبون.

٧. أن التوبة هي صمام أمان للمجتمع، يحميه من الوقوع في الفواحش، ويساعده على الرجوع والالتزام بأوامر الله ونواهيه وتطبيق شرعه لحكمة يريدها الله لسلامة المجتمع.

Marfat.com

٨. أن التوبة هي ثمرة من ثمار تقوى الله، فمن اتقى الله وقاه، ووفقه للتوبة فتدركه رحمة الله، فيتوب عليه.

٩. أن التوبة تقتضي اسقاط العقوبة في الآخرة بعد أن ينال الفرد عقابه في الدنيا، وعلى المجتمع أن يتقبل التائب، وأن يساعده في الاندماج في المجتمع، كي يكون عضواً عاملاً شريفاً، لأن الله تواب رحيم.

١٠. أن التوبة تتحقق من خلال طاعة رسول اللهﷺ، فطاعة رسول الله مفتاح التوبة ومصدر الرحمة.

١١. أن التوبة هي انتصار على النفس، ولذلك فإنه عند الانتصار يجب الاتجاه إلى الله بالتسبيح والحمد والاستغفار.

وغفر الله للقائل:

وَالنَّفسُ كالطِّفْلِ إنْ تهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى ... حُبِّ الرِّضَاعِ وَإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

فاصْرِفْ هَواهَا وَحَاذِرْ أنْ تُوَلِّيَهُ ... إنَّ الْهَوَى مَا تَوَلَّى يُصْمِ أوْ يَصِمِ

وَرَاعِهَا وَهْيَ فِيْ الأعْمَالِ سائمَةٌ ... وإنْ هِيَ اسْتَحَلَّتِ الْمَرْعَى فَلاَ تُسِمِ

كَمْ حَسَّنَتْ لَذَّةً لِلْمَرْءِ قَاتِلَةً ... مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرِ أنَّ السُّمَّ فِيْ الدَّسَمِ

وَاخْشَ الدَّسائِسَ مِنْ جُوعٍ ومِنْ شِبَعٍ ... فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ

وَاسْتَفْرِغِ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنٍ قَدِ امْتَلأتْ ... مِنْ الْمَحَارِمِ وَالزَمْ حِمْيَةَ النَّدَمِ

وَخَالِفِ النَّفْسَ والشَّيْطَانَ وَاعْصِهِمَا ... وَإنْ هُمَا مَحَضَاكَ النصْحَ فَاتَّهِمِ

Marfat.com

أخذ (راضي) يفكر، وهو يتناول مع الشيخ عبد التواب وصديقه (صادق) كوباً ساخناً من الشاي في غرفته الصغيرة، وما زال فكره مشغولاً بما شاهد في المنام، وصورة مشاهد الجنة والنار مطبوعة في ذهنه. لسانه صامت، وعقله في تفكير، وقلبه مليء بالخوف والرجاء، خوف من النار ورجاء رضا الرحمن ودخول الجنان. التفت (صادق) إلى (راضي) قائلاً: في أي شيء تفكر؟

(راضي): أفكر في أهل النار، أفكر في سوء القرار.

(صادق): إنهم ارتكبوا محظورات شرعية، أي أنهم ارتكبوا جريمة استحقوا بها النار.

(راضي): ياشيخ عبد التواب، لماذا لا تحدثنا؟ فنحن في شوق لعلمك!

فرمقه الشيخ عبد التواب بنظرة حادة، وراح يتأمل وجه (راضي) الذي تعلو قسماته الطيبة، وعادت به الذاكرة إلى الأيام الأولى من دخول (راضي) السجن، وكيف كانت قسمات وجهه الصارمة؟ وأخذ يتذكر بعض الأحداث، وكيف أن موت محسن الذي لم يكن في الحسبان بالنسبة للقلوب الغافلة- كان سبباً في حياة قلب (راضي) الذي دخل السجن نتيجة ما اقترفه من آثام، فقام بأعمال أوجبت عليه العقوبة في الدنيا، ولعل هذه العقوبة تكون سبباً لدخول الجنة، فقد اقتضت حكمة الله عز وجل أن كل من يرتكب المحظورات الشرعية التي زجر الله عنها-يكون عقابه إما قصاصاً أو حداً أو تعزيراً على الجريمة التي ارتكبها. نعم، الجريمة التي ارتكبها، لأن كل ما

Marfat.com

طلب الشارع تركه طلباً جازماً وتوعد على مباشرته بعقوبة محددة أو غير محددة–يصدق عليه لفظ (الجريمة)، ويراد منها المعصية والمنكر، ويصدق على من باشرها لفظ (مجرم)، وهي بلا شك سلوك إنساني منحرف، يمثل اعتداء على الحقوق التي يحميها الشرع أو القانون الصادر بناء عليه. (أبو سليمان، ١٤٢٢هـ: ٢٤).

(راضي): ياشيخ، ما بك صامتاً ولم تجب؟

(الشيخ عبد التواب): كنت أفكر فيما قاله (صادق) عن المجرمين أهل النار.

(راضي): ياشيخنا، هل هناك حماية للإنسان من دخول النار؟

(الشيخ): نعم ياولدي، العودة إلى الله وطلب المغفرة وأداء حقوق الله وحقوق خلقه.

راضي: ما ذا تقصد ياشيخنا؟

الشيخ: أقصد ياولدي إقامة الحدود، وهي من (حقوق الله)، وهي تعني أكثر مما يعنيه الحق العام في القانون الوضعي، وكذلك (حقوق الآدميين) وهي محظورات شرعية ترتكب ضد الحق الخاص للآدميين.

راضي: لم أفهم ياشيخ!

الشيخ: ياولدي، إن أراد الفرد البعد عن النار، عليه أن يبتعد عن الجرائم.

راضي: ماذا تقصد بالجرائم؟

Marfat.com

الشيخ: حسناً ياولدي، سوف أشرح لك الأمر، فقد قسم الفقهاء الجرائم إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: الجنايات، وهي: التعدي على البدن بما يوجب قصاصاً أو مالاً.

ثانياً: القذف: وهو الرمي بالزنا أو اللواط أو شهادة بأحدهما، ولم تقم بينة.

ثالثاً: الاعتداء بما لا يوجب حداً: وهي المحظورات والمعاصي التي لم تشرع لها عقوبات مقررة كما في الحدود والجنايات، فهو صنف أقل من الجنايات، يطبق فيه القاضي التعزير–وهو التأديب على ذنوب لم تشرع فيها حدود–هذه ياولدي الأمور التي تقود الفرد إلى النار، وفي الوقت نفسه تهدد أمن المجتمع، وتعرض مثله وقيمه للانهيار بدرجات متفاوتة، كل واحد منها يمس كلية من الكليات الخمس، التي أجمعت الأمم والشرائع على المحافظة عليها وهي: الدين، العرض، العقل، المال، النفس، لذلك نجد أن الشريعة الإسلامية تحرص على الحفاظ على هذه الكليات بجميع الوسائل وبكافة السبل، وذلك كي لتضمن للمجتمع السلامة في هذه الدنيا، وتكون لهم وجاء من دخول النار، وتحمي الإنسان من نوازع الشر التي تزداد بحسب البيئة التي يعيش فيها الفرد، فالإنسان العاقل والمجتمع الفاضل يحرص على حماية هذه الأمور أو الكليات الخمس للحد من وقوع الجريمة وأقول الحد لأن القضاء على الجريمة في جميع المجتمع أمر صعب المنال إن لم يكن مستحيلاً (أبو سليمان، ١٤٢٢هـ: ٢٤).

Marfat.com

صادق: ياشيخنا، دعني أقاطعك، وقل لك: إذا كان القضاء على الجريمة أمراً صعب المنال، فلماذا الدعوة للقضاء على الجريمة؟

الشيخ: ياولدي ياصادق، كما أخبرتك: أن كل ابن آدم خطاء: فالخطأ وارد، وعلى الأمة أن تقلص من العوامل التي تؤدي إلى الجريمة، فتقل الجريمة.

راضي: ياشيخ، هل يمكن لك أن تبين لي العوامل المؤدية إلى الجريمة لأتجنبها؟

الشيخ: نعم ياولدي، لكن هذا الأمر ينبغي أن يقوم به الفرد، وكذلك الأمة بكامل مؤسساتها، فالعوامل المؤدية للجريمة كثيرة، سوف أكتفي بذكر عشرة عوامل فقط، وهي: تفكك الأسرة بسبب التنافر بين الزوجين، وعدم الاهتمام بالمسؤوليات المناطة بأفراد الأسرة، الصداقات المنحرفة، انقياد الآباء والأمهات لرغبات الأبناء، الفراغ والبطالة، الجشع بالاستكثار من المال، وعكس ذلك أي الحرمان من المال، إطلاق الحريات السلوكية بلا ضوابط، الإعلام غير المسؤول، فقدان القدوة الحسنة، غياب التعليم الديني الواعي من المناهج الدراسية (أبو سليمان، ١٤٢٢هـ: ٢٤).

صادق: هذا الأمر يعني أن على المجتمع مكافحة الجريمة والحد منها بل يجب الوقاية والحيلولة دون وقوعها قبل اكتسابها أو مزاولتها.

الشيخ: أحسنت ياصادق، وبارك الله فيك، ورزقك الفهم، نعم ياولدي، يجب أن يكون الإصلاح عملاً يقوم به الفرد وكذلك المجتمع بأن يعملوا جميعاً

Marfat.com

للحد من العوامل العشرة السابقة بحيث يوفر الجو الأسري والاجتماعي النقي الذي يقوم على التحقق من عدة مراحل منها:

المرحلة الأولى: المساعدة والمساندة في تكوين الأسرة الصالحة.

المرحلة الثانية: رعاية الشباب بالتربية الدينية الصحيحة.

المرحلة الثالثة: وجود القدوة الحسنة.

المرحلة الرابعة: تقديم الحماية للشباب خلقاً وسلوكًا.

المرحلة الخامسة: الاقتصاد في طلب المال، ومعالجة الحرمان.

المرحلة السادسة: مسؤولية الدولة والجماعة والأفراد في تثبيت القيم والمبادئ.

المرحلة السابعة: تنفيذ العقوبات الشرعية.

هذه المراحل السبعة ذكرها ياولدي (أبو سليمان)-حفظه الله- في دراسة له عن المنهج الإسلامي لمكافحة الجريمة، ووضح أن العقوبة الإيجابية هي التي تحقق أهدافها، وهناك شروط للعقوبة كي تكون إيجابية، تحقق أهدافها، منها:

١. سرعة التنفيذ فوراً، لأنه يحقق معنى الزجر والردع كاملاً لدى الآخرين.
٢. ملاءمة العقوبة للجرم بلا نقص أو شطط.
٣. التوازن بين ما للمجتمع وما للفرد من أحكام العقوبات، فلا يطغى حق الفرد على حق الجماعة، ولا حق الجماعة على حق الفرد، بل لكل حرماته وحدوده. (أبو سليمان، ١٤٢٢هـ: ٢٤).

Marfat.com

أخذ (راضي) يفكر في نفسه، وكيف أن فقدان المراحل السبعة التي أخبره بها الشيخ عبد التواب جعلت منه مجرماً، ففي المرحلة الأولى فقد والدته، وقيض الله له والده الطيب، فرعاه أحسن رعاية، ثم كانت إرادة الله بوفاة الأب وحرمانه من الأسرة الصالحة، فكانت الخطوة الأولى في طريق الجريمة، لأن الخطوة الثانية -وهي فقدان الرعاية والتربية الدينية الصحيحة- جعلته في طريق الغواية، وذلك لانعدام القدوة الحسنة، وفقدان الرعاية والحماية حتى من المؤسسات التعليمية وتذكر المدرسة وطرده منها، واضطراره بسبب الجوع ثم الأمور الأخرى إلى سلوك طريق الغواية، وذلك لأن الجماعة والأفراد الذين كانوا حوله لم يوفروا له ما يثبت القيم والمبادئ لديه.

ثم كانت الهداية عندما نفذت بحقه العقوبة الشرعية، ودخل السجن، ووجد في الشيخ عبد التواب القدوة الحسنة الذي دله على طريق التوبة وقال له: إن التوبة هي ترك الذنب على أجمل الوجوه، أي: بتقديم العذر أو الندم، وذلك بأن يقول عن الذنب الذي ارتكبه: إنني لم أفعل، أو فعلت لأجل كذا، أو فعلت وأسأت وقد أقلعت.

قطع تفكيره صوت (صادق) وهو يقول له: عما إذا كان يحب أن يصحبه إلى المسجد، فقال له راضي: حسناً.

قال (صادق): هل تحب المسجد منذ صغرك.

Marfat.com

راضي: نعم، ولكن في السنوات التي كانت بعد وفاة أبي وانخراطي في طريق الغواية نسيت الطريق إليه، وبعد أن مضت هذه الشهور في السجن، عرفت طريقه، وعدت إليه.

صادق : رمقه بنظرة مليئة بالمحبة والحنان، وأخذ يتأمل وجه صديقه إلى وجهه المضيء بنور الإيمان، ورأسه الشامخ المعتز بنفسه بعد أن أسلمها للرحمن، وكان يشعر بشعور عجيب لم يعرف له سبباً، وعادت به الذاكرة إلى صديقه محسن. وكيف أن الله اختاره إلى دار القرار؟ وجد نفسه بحكم محبته لصديقه ينخرط في البكاء، وانتقلت به الأفكار من عالم الزوال، إلى عالم البقاء، من عالم الدور والقصور إلى عالم الجنة والحور، ووجد نفسه في عالم آخر، لم يجعله يتنبه إلا عندما ضمه (راضي) إلى صدره وقال له: يا أخي لا تبكي، فالدنيا لا تستحق أن نذرف عليها دمعة واحدة.

صادق: لا نذرف الدموع على الدنيا بل على قلة العمل وطول الأمل وكثرة الذنوب، ولا أعلم ما المصير؟ الجنة أم النار؟

راضي: لا تذرف الدموع يا أخي، ولكن احرص على أن تحقق شرائط التوبة التي أخبرنا الشيخ عبد التواب عن فضلها.

صادق: لذلك أبكي يا (راضي)، لأني أخشى أنني لا أستطيع أن أحقق شرائطها، فقد أخبرنا الشيخ عبد التواب أن الإخلاص هو أساس التوبة، وأن من شرائط التوبة:

Marfat.com

١. ترك الذنب بقبحه.

٢. الندم على ما فرط منه.

٣. العزيمة على ترك المعاودة.

٤. تدارك ما أمكن أن يتدارك من الأعمال.

(الشرباصي، ١٤٠٢هـ: ٢/٢٦٥).

وقد ألحق بعض السلف شروطاً للتوبة، مثل: أداء مظالم العباد وحقوقهم، وقضاء ما فات من واجبات الله تعالى، وإصلاح المأكول والمشروب والملبوس وجعلها من الحلال، وتطهير القلب من الغل والغش والمكر والكبر والحسد والحقد، وطول الأمل، ونسيان الأجل، وما أشبه ذلك. (الرازي، ١٤١٢هـ: ٨).

فأنا أبكي لأني لم أشعر أنني حققت جميع شرائطها كما ينبغي.

راضي: يا أخي، لا تجعلني أعيش في قلق، فقد أخذت نفسي تتعود على الطمأنينة التي افتقدتها في فترة أرى أنها طويلة، ثم أرجع الله بسبب الشيخ عبد التواب إليها المسلوب، وأعاد إليها رونقها وجعل من التوبة علاجاً لنفسي المضطربة، وجعلني أشعر بفوائد التوبة، وأقنعني -جزاه الله عني وعنك وعن كل سجين ألف خير- بفوائدها النفسية التي تعود للفرد بالخير، وأنها تتضمن جوانب كثيرة، شرحها لي، مما جعلني أستعيد شخصيتي المفقودة.

صادق: هذا شيء جديد لم أسمعه منك من قبل ولم يخبرني به الشيخ، فهل يمكنك أن تتفضل بإرشادي إليه،

Marfat.com

راضي: نعم يا أخي فقد أخبرني الشيخ عن فوائد التوبة، وأنها تساعد على بناء الشخصية، ومنها: (طبارة، ١٩٨٢م: ٢٨-٢٩).

١. التوبة تفتح الأمل أمام الإنسان القلق في تطهير النفس، مما يشعره بالراحة النفسية والتفاؤل والبعد عن النظرة التشاؤمية.

٢. التوبة تجعل صاحبها يحترم ذاته، أي: تساعده على تأكيد الذات، والقدرة على التحكم بالنفس، والإقلاع عن المعصية.

٣. التوبة تجعل الفرد يتقبل ذاته بعد نفوره منها، وإعلان الحرب عليها، واحتقارها، بسبب ارتكاب الآثام.

٤. التوبة تدفع الفرد إلى التحرر من الشعور بالذنب، والخوف، لأنه مقبل على رب رؤوف رحيم، تواب غفار الذنب.

٥. التوبة تدفع الفرد إلى إصلاح نفسه.

وبذلك نجد أن التوبة هي عمل شخصي فردي، يقوم به الإنسان بتوفيق من الله، وهي عمل صالح مقرب إلى الله جالب لرحمة الله ومغفرته، وصدق الله العظيم القائل في محكم التنزيل ({مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) (سورة فصلت: ٤٦).

وأن هذه التوبة لها علل، وأهم عللها انعدام الإخلاص،وضعف العزيمة والتفات القلب إلى الذنب الفينة بعد الفينة، والطمأنينة، ووثوق الفرد بنفسه، حتى كأنه قد أعطى منشوراً أو صكاً يؤكد له النجاة والأمان، كما أن من علل

Marfat.com

التوبـة جمـود العينـين واسـتمرار الفـرد في غفلتـه، ومــن عللــها أيضــاً أن لا يسـتحدث الفـرد بعـد التوبـة أعمـالاً صالحـة لم يكـن يقـوم بـها قبـل التوبـة (يعقوب، ١٤٢٠هـ: ١٢٩).

وأن تكون التوبة يا أخي من الكبائر بمراتبها الثلاث.

صادق: نعم، فقد تذكرت هذه المراتب، وقال الشيخ عبد التواب جزاه الله كل خير: إن الكبائر ثلاثة مراتب، والمرتبة الأولى أعظم الكبائر، وهي كل ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله، وهو الكفر، فلا كبيرة فوق الكفر.

والمرتبـة الثانيـة تتعلـق بـأعظم مخلـوق علـى الأرض كرمــه الله وهــو الإنسـان. أي: نفـس الإنسـان، إذ ببقـاء التفـوس وحفظـها، تــدوم الحيــاة، وتحصل المعرفة بالله، لذلك فإن قتل النفس يا أخي لا محالة من الكبائر-وإن كانت دون الكفر الذي يصدم عين المقصود- وهذا يصـدم وسـيلة المقصـود. أمـا الـمرتبة الثالثة فإنها تتعلق بمحــرك البشـر، وهـو الــمال، لأنـه يعتمـد عليـه معايش الخلق، فلا يجــوز تسلـط النـاس علـى تنـاول الــمال كــيف شــاءوا وبطـرق متعددة حتى بالاستيلاء، والسرقة وغيرهـا، بـل ينبغـي الحفـاظ علـى المال حيث ببقاء المال، بقاء للنفوس وحماية لها مما يداهمها من أمور الحاجـة (الغزالي، ١٩٩١م: ٤٢-٤٣).

Marfat.com

ورحم الله الشيخ عبد القادر الجيلاني! فقد قال: اتبعوا ولا تبتدعـوا، وأطيعوا ولا تمرُقوا، ووحّدوا ولا تشركوا، ونزّهوا الحق ولا تَتَّهِموا، وصدّقوا ولا تشكوا، واصبروا ولا تجزعوا، واثبتوا ولا تفرّوا، واسألوا ولا تسأموا، وانتظـروا وترقبوا ولا تيأسوا، وتآخوا ولا تعـادوا، واجتمعـوا علـى الطاعـة ولا تتفرقـوا، وتحابّوا ولا تباغضوا، وتطهروا عن الذنـوب، وبـها لا تتدنسـوا ولا تتلطخـوا، وبطاعة ربكم فتزيّنوا، وعن باب مولاكم فلا تبرحوا، وعـن الإقبـال عليـه فـلا تتولوا، وبالتوبة فلا تسوّفوا، وعن الاعتذار إلى خالقكم في آنـاء الليـل وأطـراف النهار فلا تملوا، فلعلكم ترحمون وتسعدون، وعـن النـار تُبْعَـدُون، وفي الجنـة تُحْبَرُون، وإلى الله تصلون، وبالنعيم في دار السلام تشتغلون، وعلـى ذلـك أبـداً تخلّدون، وعلى النجائب تركبون، وبحور العين وأنواع الطيب وصـوت القيـان مـع ذلـك النعيـم تحـبرون، ومـع الأنبيـاء والصديقـين والشـهداء والصـالحين تُرْفعون. (الحراني، ١٤١٥هـ: ٢٧)

Marfat.com

صادق: ما أعظمه من شيخ وطبيب للقلوب المريضة! فقد أعاد إلى قلبي الثقة بعد أن كانت في حيرة بسبب ذلك المدعي للعلم والمعرفة، البعيد عن طريق الهداية الذي حدده رب العالمين.

راضي: لم تخبرني بقصة هذا المدعي!

صادق: إنها قصة طويلة، أخبرني بها لقمان الذي كان واعظاً في هذا السجن قبل مجيء الشيخ عبد التواب، والذي كان أثره أكبر من عمل كثير من الوعاظ.

راضي: اخبرني يا أخي، لعلي آخذ عبرة أو عظة من قصة لقمان.

صادق: في الواقع أنها ليست قصة لقمان بل قصة نعمان وعجروش الشيطان، وقد أخبرني بهذه القصة لقمان.

راضي: يا أخي أرجوك، لقد شوقتني للقصة، فمن هو نعمان ومن هو عجروش الشيطان؟

صادق: سوف أخبرك، فقد قال لي لقمان:

اعلم ياولدي أن الوقوع في الخطأ من شأن البشر، ومعالجة الأخطاء أمر مطلوب إذا استطاع الإنسان أن يرتقي بنفسه، فتبدأ النفس اللوامة، وتحكم سيطرتها على النفس الأمارة بالسوء، فتجعلها تنقاد إلى الطاعة ومعاتبة النفس، ويصبح هناك صراع بين الخير والشر، وبين الفضيلة والرذيلة، ويعيش الإنسان في صراع داخلي إلى أن يتغلب أحداهما على الآخر، هذا الوضع عاشه

Marfat.com

نعمان وهو في جوانب السجن بعدما ألقى عليه واعظ السجن عدداً من المواعظ، ودعم قوله بعمل جاد وأمثلة واقعية ربطته بخالقه وموجده، وبدأ نعمان يفكر، فأنب نفسه على ارتكاب ما ارتكب، وأخذ في تغيير بعض السلوكيات لديه، وهو في جهاد مستمر مع نفسه.

أقبل عليه شينان، وأخذ يحاوره، فأفصح له عن أمانيه، وأن أكبر أمنية لديه هي أن يصلح نفسه، ويخرج من بوابة السجن، ويعود إلى المجتمع عضواً نافعاً فاعلاً، فقد أمضى فترة طويلة في السجن، ويبقى عليه ثلاث سنوات كيف سيمضيها؟ كيف ستمر الأيام لكي يخرج ويحتضن زوجته وابنه ياسر وابنته سرور؟ وما هو الحل؟

وبعد فترة قرر نعمان أن يقبل على قراءة القرآن الكريم، لعله يخفف عنه، وبعد الحفظ والتفكير قرر أن يكون مقصده من الحفظ هو مرضاة الله تعالى، وإصلاح نفسه، وأخذ شينان يفكر معه، ثم توصل إلى قرار، وقال له: وجدت الحل، كي تسرع في الخروج وتذهب إلى زوجتك وإلى ياسر وسرور فتمتلئ قلوبهم الصغيرة فرحاً وحبوراً، والفكرة مجربة، وخلاصتها أن تتمكن من الاتصال بأحد الرجال المجربين لحل المشكلات، إنه الشيخ عجروش القادر على تغيير النفوس، حتى إنه يستطيع أن يؤثر على عقل مدير السجن، فيجعل مدير السجن يصدر القرار القاضي بالتخفيف، وطريق الوصول إلى هذا

Marfat.com

الشيخ هو إرسال رسول من أقاربه ليكلم الشيخ عجروش الذي يمتلك قدرة عجيبة في تغيير النفوس.

وجاء يوم الخميس وقدم قريب شينان فأخبره بالموضوع، فقال له سوف يخبر الشيخ عجروش ثم يخبره. ومضت أيام، ثم أقبل عليه، وقال له: إن الأمر بسيط والشيخ عجروش وافق، وأنه يطلب مبلغاً من المال كي يشتري البخور وبعض الأمور اللازمة، والمبلغ المطلوب هو خمسة آلاف، ألفان منها تدفع مقدماً، والثلاثة الباقية تدفع مؤخراً بعد تخفيف المدة وخروجه من السجن، وكان نعمان في أحد السجون الذي استفاد من القرار الخاص بإتاحة الفرص لعمل المساجين، وكان قد جمع مبلغاً من المال، فقام وأعطى صاحبه ألفين، وبقي ثلاثة آلاف عند الحجة والبرهان.

وأخذ الرجل المال وأعطاه للشيخ عجروش الذي يدعي القدرة على تغيير النفوس، وبعد أيام أحضر له طعاماً، وطلب منه أن يأكل من هذا الطعام، وسوف يجد في آخر الصحن ورقة مغموسة بزيت، فعليه أن يحرق هذه الورقة ويتبخر بها، ويبقي جزءاً من الورق المحروق فيمسح به، وجزءاً يسيراً غير محروق يأكله، وينتظر بعدها ثلاثة أيام، وبعد مضي اليوم الثالث سوف يسمع صوتاً بعد منتصف الليل، فإذا سمع الصوت، قام ووجَّه نفسه تجاه القبلة، ونظر إلى السماء، ويمكث إلى أن يسمع صوتاً آخر، فيصلي ركعتين، وينتظر، ولا ينام إلا بعد سماع الصوت الثالث.

Marfat.com

فقال: نعمان ما نوعية الأصوات التي سيسمعها؟ فقال لـه شينان: لم يخبرني الشيخ بذلك، وسوف أحاول الاتصال بـه، ولكـن الأمـر عسـير، لأن قريبي لن يحضر اليوم. وإن انتظرت إلى الغد، فإني أخشـى من فسـاد العمـل الذي عمله الشيخ! وأخذ يفكر! ويفكر! وفجأة قال لـه: قد تذكرت أن الشيخ لم يخبرنا بنوعية الأصوات، لأنه طلب ما نسيت أن أخـبرك بـه وهـو وصفـك للثلاثة الأصوات التي من خلالها سوف يخبرك باليوم الذي سوف تخرج فيـه من السجن. ولا تنسى يـا نعمـان أن تكـون دقيقـاً في الوصـف، حريصـاً علـى إبلاغي دقائق كل شيء.

فقال لـه نعمان: سـوف تكـون معـي وتسـمع. فقـال لـه شيـنان: لا يمكنني ذلك لأن الشـيخ عجـروش قد حظر ومنع أن يكون معك إنسان، لأن العمل سوف يفسد، فكن حريصاً على أن تكون وحدك. فشـكره نعمـان، وبـدأ يأكل الطعام، وطلـب مـن شـينان أن يشـاركه الطعـام. فقـال لـه: إن الشـيخ عجروش طلب منه أكل جميع الطعام وأن لا يشاركه في الأكل أحد من الأنام، وعليه بعد الطعام أن يغسل يده اليمنى أما اليد اليسرى فعليـه أن يخـرج بـها الورقة التي سيحرقها باليد اليمنى، ويجمع مـا احـترق في اليـد اليسـرى، إلاَّ الورقة الصغيرة المعدة للأكل، فعلـى نعمـان أن يأخذهـا بـاليمين، ويضعـها في فمه، ويلوكها، على أن يتم طحن الورقة بأضراس الفم الواقعة في جهة اليمـين لأن الشيخ عجروش حريص على الورقة التي بها الكتابـة. وطلـب أن يحملـها

Marfat.com

نعمان وهو طاهر، وأن يأخذها بيده اليمنى، وأن يلوكها بأضراس الفم الواقعة في اليمين، والسبب في ذلك أن القلب يذكر الله، وأن الورقة فيها أمور تكمل عمل القلب لجلب الفرح والسرور!

فقال: نعمان: وماذا أعمل ببقية الورقة المحروقة التي سوف أحتفظ بها في يدي اليسرى؟

فقال: شينان عليك: أن تفرك بيدك اليمنى الورقة المحروقة، ولكن عليك فقط أن تمسكها بثلاثة أصابع، ثم تعمم بها جميع اليد اليسرى إلى المرفق، على أن يكون تعميم المرفق ببقايا الورقة المحروقة من الجهتين.

وافق نعمان، وأخذ يأكل الطعام واستمر في الأكل، فوجد الطعام لذيذاً، ووجد الأرز مطبوخاً بجراد البحر (Lobster)، فالتفت إلى شينان، وقال له: إن هذا الطعام غالي الثمن، فضحك شينان وقال: ماذا تظن؟ هل الشيخ يأخذ الأموال لنفسه؟ كل عمله في سبيل الله، والمبلغ الذي أخذه منك جزء منه صدقة، وجزء للبخور، وجزء للطعام، وجزء لأهل الأرض، فالشيخ لا يأخذ قرشاً واحداً لنفسه، وقد شرطوا عليه عند ما أجازوه أن يكون العمل خالصا لوجه الله وليس للكسب، وظل نعمان يأكل، ثم قال: وجدت الورقة، فقال له شينان: توقف الآن، ونفذ أوامر الشيخ، وبدأ نعمان في التغيير، وشعر بحرارة، ثم أخذ بيده الشمال ينفذ أوامر الشيخ، وأخذ بقية الورقة، وقام بمضغها بأضراس الجهة اليمنى، وأكمل جميع التعليمات، وانتظر ثلاثة أيام،

Marfat.com

ثم في منتصف الليل قام لإكمال ما أشترط عليه الشيخ، وسمع صوتاً أشبه ما يكون بسقوط حجر متوسط الحجم، فقام وتوجه إلى القبلة ومكث ينتظر، وبعد وقت طويل سمع صوتاً أقرب لمواء الفطط، فقام وصلى ركعتين، وأثناء الصلاة أخذ يتأمل في السماء، فلفت نظره جمال النجوم، وهدوء الليل، والناس نيام، وهو يناجي الحي الذي لا ينام ! وأخذ يقول لنفسه: من القادر؟ فتقول له نفسه: (الله) ! ثم يقول: من المانع؟ فتقول له نفسه: (الله)! فيقول: من القابض فتقول له نفسه: (الله)! فيقول من بيده مقاليد الأمور؟ فتقول له نفسه: هو الله، ثم أخذ يقول لنفسه: أنت تصلي لله، وتعتقد أن القادر على تغيير النفوس إنسان مثلك؟ ماذا حدث لك يانعمان، اعتمدت على مخلوق ونسيت الرحمن؟ ماذا حل بك يا نعمان، أخذت في حرق الورق ونسيت القرآن ؟ ماذا حدث لك يانعمان؟ ماذا حدث لك يا نعمان؟ توقف نعمان وتمكنت نفسه اللوامة من النفس الأمارة التي أمرته بأن يسلك طريقاً غير مأمون العواقب مليء بالمتاهات، وبه العديد من الحفر التي قد يتعثر ويسقط فيها. وقرر النوم دون إكمال ما أمره الشيخ عجروش.

وفي الصباح أقبل شينان وقال له: ماذا سمعت؟ فقال له نعمان: إنه أنب نفسه لقيامه بعمل لم ترضه نفسه، ورفضه عقله، وأخبره أنه سوف يعتمد على الله، وينتظر قدر الله، فقال له: ماذا سمعت، وبعد إلحاح أخبره، وبعد يومين أقبل شينان وهو فرح، وقال بنشوة ملأت نفسه: قد

Marfat.com

أخبرت قريبي، وقد أخبر الشيخ عجروش، فقال الشيخ عجروش، علينا أن نهنئك! فقد تحقق الشيخ من خروجك من السجن بعد تبينه للأصوات فقد أخذ الشيخ الصوت الأول وهو صوت الحجر، أخذ منه الحاء، وأخذ من الصوت الثاني الحرف الثاني من قط وهو الطاء، ذلك يعني أن الله حط، ولم يظهر ماذا حط الله عنك يا نعمان؟ لأنك لم تنتظر حدوث الصوت الثالث لكي يخبرك الشيخ عجروش أن الله كم شهراً حط عنك؟ فانظر لبركات الشيخ الذي عرف أن الله حط عنك، وأنت لم تساعد الشيخ على إكمال العمل، وعليك أن تذهب إلى الشيخ عجروش، وتأخذ إذناً من السجن طالما أن الدولة سمحت للسجين بالخروج من السجن والعمل لدى المؤسسات والعودة إليه في المساء طالما السجين يتمتع بالخلق الجيد، وأنت من خيرة السجناء.

تردد نعمان، لكن نفسه قالت له: ألم تنظر كيف أن الشيخ عجروش من خلال صوت الحجر والقط عرف من الصوتين! فعليك يا نعمان أن تسلك طريقاً صحيحاً يخرجك من السجن، والشيخ المبارك عجروش هو الطريق!" وفي الوقت نفسه فإن نفسه اللوامة كانت تقول له: ماذا جرى لك؟ بالأمس عرفت طريق الحق، واليوم تسلك طريق الضلال؟ فتقول له نفسه: أي ضلال؟ فالشيخ لم يطلب منه محرماً، بل أمره بالصلاة، ولم يقم بعمل فيه شعوذة، بل تفسير منطقي لصوت الحجر والقط! ومضت فترة ونعمان بين شدّ نفسه اللوامة ونفسه الأمّارة، وفجأة قرر نعمان أن يمتنع عن الذهاب للشيخ عجروش، وبلّغ صديقه

Marfat.com

شينان بما قرر، فقال لـه شينان، كيف تقرر ذلك بعد أن عمـل الشـيخ أعمـالاً كثيرة في سبيل تخليصك من العمل الذي عمل لك؟ التفت نعمان وهو مندهش: عمل؟ من الذي عمل العمل؟ وما هو العمل؟ فـالتفت إليـه شـينان مـرة أخـرى وقال لـه: ماذا تظن؟ هل عندما ثرت على تامر المقـامر وضربتـه وكسـرت لـه قدمه وكاد أن يموت، فهل تعتقد أن ثورتك من أجل القمار؟ لا يا نعمان، فقد أخبرني الشيخ عجروش أن العمل كـان مـن أحـد أبنـاء عمومتـك، وهـو أحـد الحاقدين عليك، لأنه كان يريد أن يتزوج من الفتاة الـتي أصبحـت زوجتـك، وأنها كانت تميل إليه، ولكن بعد تقدمك انقطعت عنه تمامـاً! نعمـان: مـن هـو ذلك الرجل؟ ألم يخبرك الشيخ؟.

لا لم يخبرني الشيخ، لأن الشيخ لا يحب الفساد، ولا يريد أن يجعل صلتك مع أقربائك سيئة، إنه لا يريد القطيعة، لأن القطيعة تغضب الله.

أخذ نعمان يفكر، ويفكر، وأخذ يعيد ذكريات زواجه منـذ أن تـزوج، كيف كانت تعامله زوجتـه؟ نعـم، في البدايـة لم تكـن قريبـة منـه، كـانت لا تفهمه! نعم، كانت تتبرم منه؟ كل ذلك لأنها كانت تحب غيره! من هو هـذا الوغد؟ وأخذ يتأمل وجوه أبناء عمومته واحدا واحدا. عبد الله! لا! لا! إذاً هو سعيد! لا مستحيل! لأن سعيداً أخو الزوجة من الرضاع !من هو؟ من هو؟ من هو؟ نعم إنه عامر إنه دائماً لا يبتسم ولا يضحك لي!

Marfat.com

اعدني يارب، فقد تشابكت لدي الأمور! لم أصل إلى الصواب! لكن كيف أصل إلى الحقيقة! والشيخ عجروش لا يريد الفتنة؟ لا، سوف أحاول أن أخرج، سوف أذهب إلى زوجتي، وأجعلها تعترف، وإلا فإن القتل سيكون من نصيبها. نعم، القتل من نصيبها، إنها خائنة! نعم إنها خائنة! كانت تميل إلى فرد آخر، نعم، قتلها فضيلة ومسح للعار المنتهك، نعم، فقد مضت فترة ولم تسأل عني! نعم، قد استغلت وجودي في السجن، لتعمل ما تعمل، يجب قتلها، يجب قتلها! وأخذ يبكي، ويلوم نفسه، كيف يشتاق لزوجته الخائنة التي قيض الله له الشيخ عجروش كي يعرف حقيقتها. وظل حزيناً كئيباً يتمنى أن يقتل جميع من تعرض لشرفه.

وفي هذه الحالة سمع صوت الأذان، والمؤذن يردد: (حي على الصلاة حي على الفلاح الصلاة خير من النوم، الصلاة خير من النوم)، نعمان لم ينم جزءاً من الليل، مر الليل وهو سهران، قام نعمان وتوضأ، وأثناء الوضوء شعر أن النار التي كانت متأججة داخله بدأت تنطفئ، وفي طريقه للمسجد أخذ يستغفر الله من الذي أمرته به نفسه، وعندما وصل للمسجد كانت الإقامة، وقال الله أكبر، وبمجرد دخوله في الصلاة أخذ يتأمل قول الإمام: الحمد لله رب العالمين فأخذ يبكي، وبخاصة عندما وصل الإمام إلى قول الحق: اهدنا الصراط المستقيم، وأخذ يردد في نفسه: يارب اهدني الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم، فقد أنعمت علي بحفظ القرآن، فلا تمكن مني الشيطان،

Marfat.com

ثم بدأ الإمام يقرأ إلى أن وصل إلى قول الحق: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) (سورة الحجرات: ٦).

أيقظته هذه الآيات الكريمات، وأخذت فرصتها النفس اللوامة، وأخذ يردد: أستغفر الله، استغفر الله، كدت أرتكب جريمة لا ترضي الله تعالى، يجب أن أتبين، وانتهت الصلاة، وقال الإمام: السلام عليكم ورحمة الله، وسلَّم نعمان مع الإمام، وبعد السلام التقت عينه بعين لقمان، وهو أحد وعاظ السجن، وهو قريب من المساجين، فقال له لقمان: ما بال وجهك شاحباً؟ قال نعمان: لم أنم طيلة الليل، قال لقمان: لماذا لم تنم؟

-قال نعمان: سوف أخبرك، وأخذ يحدثه، واستمر الحديث لفترة طويلة، واستمر الحديث إلى ما بعد شروق الشمس، وخرج الاثنان، وهما في الطريق أقبل شينان، فالتفت لقمان إلى نعمان وقال له: احذر من شينان ومن أفكاره، وأقبل على القرآن وأنواره، ثم قال له: إن عليّ الآن عملاً، وسوف أذهب وأعود لألتقي بك ثانية. كن على حذر كما أخبرتك، سوف نلتقي في المسجد.

وذهب لقمان، وأقبل شينان وقال له: اليوم يجب أن تخرج، وسوف ترى متى تخرج من السجن، وعلى الحجة والبرهان مكتوب بيد الشيخ دون أن يمسك قلماً ببنان.

Marfat.com

ضحك نعمان وقال لـه: إنني لن أذهب ولن أعطـي مزيـداً مـن المـال، التفت شينان، فقال: سبق أن قلت لـك: إن الشـيخ لا يريـد مـالاً، بـل يريـد إنقاذك من السحر والجان الذي سلّطه عليك ابن عمك، وسوف يخبرك بوقـت خروجك، ما عليك إلا أن تخـرج مـع قريـبي الـذي سـوف يـأتي اليـوم أثنـاء خروجك للعمل، والذي سمح لك بالقيام به، وسوف تلتقي بالشـيخ عجـروش. وبعد تردد ورفض من قبل نعمان ودفع من قبـل شينـــان وإعـلامـــه بأنـــه لـــن يخسر شيئاً، وافق على إعطائه الفرصة الأخيرة.

وجاء القريب وذهب معه والتقى بالشيخ عجروش وأخذ الشيخ بصوتـه الأجش يقول لـه: مسكين أنت يا نعمـان، فقد أحزنـني وضعـك! يـا أطيـب الرجال ثم قال لـه: اكتـب في ورقـة: يـاربه أطلـب منـك أن تذهـب حـيرتي وتدلني على من عمل لي العمل؟ ومتى سأخرج من السجن؟ وأخذ نعمان يكتب ما قاله الشيخ في ورقة كبيرة وبخط كبير، وقد استخدم ماء الورد مع الزعفران، وطلب منه الشيخ أن يطبق الورقة ثم يقول: هذا الطلب المطلوب! هـذا الطلـب المطلوب! هذا الطلب المطلوب! وبعد ذلك يعد سراً إلى عشرة، ثم يعطي الورقة للشيخ. ففعل نعمان ما أمره به الشيخ، ثم أعطى الورقـة للشـيخ، فطلـب منـه الشيخ أن يأخذ عود الكبريت الذي أخرجه من جيبـه مـع علبـة التبـغ الـذي وضعه جانباً، وأعطى الكبريت لنعمان، وأخذ نعمان الكبريت، وبـدأ في حـرق الورقة التي أمسك بها الشيخ، وبعد أن أكمل حـرق الورقـة طلـب الشـيخ مـن

Marfat.com

نعمان أن يمد يده كي يكتب الجان على يد نعمان اسم فـاعل السـحر، ومتـى الخروج من السجن؟ خاف نعمان، وقال للشيخ: لمـاذا لا تكـون الكتابـة علـى يدك؟ فقال الشيخ: أخشى أن يوسوس لك الشيطان، فتظـن أن مـا يظـهر قـد كتبته على يدي، ولكن لا تخف، سوف أنفذ رأيك، لكن بعد شرط مهم، قال نعمان: ما هذا الشرط؟ قال الشيخ: أن تتأكد من خلو اليديـن مـن أيـة كتابـة، ونظر نعمانو وأوقد الشيخ جميع المصابيح، ونظر نعمان، فلم يلاحظ شيئاً.

طلب الشيخ من نعمان أن يأخذ الورقة المحروقة، ويمسـح بـها يـده، وقام نعمان بما أمره الشيخ، وأخذ يمسح يد الشـيخ، وأثنـاء المسـح ظـهر رقـم ثلاثة، ثم أخذ في الظهور حرف (حاء) وكـاد نعمـان أن يفقـد صوابـه، كيـف ظهرت هذه الكتابة؟ مـن هـو الكـاتب؟ كيـف ظـهر هـذا الرقـم! هـذه أسـرار وبركات الشيخ عجروش، وعلى الشيخ أن يفسر الكتابة، فـأخذ الشـيخ يفسـر لنعمان ما كتب، فقال الشيخ: إن الرقم ثلاثة يعني...

توقف فجأة، ثم التفت إلى نعمان، وقال: يا نعمان كيف تكتب وأنت على غير طـهارة، كـان عليـك أن تكتـب بعـد أن تتـم الوضـوء، فقـد ظـهرت الكتابة، ولكن لم تكتمل، لأن وضوءك غير مكتمل، فقد ظهر رقـم ثلاثـة، ولم يظهر ما يبين هل هي شهور أم سنوات، ولكن ما تـأكدت منـه هـو أن العمـل المعمول من أحد أبناء عمومتك، ولم يظهر إلا حرف واحد وهو حاء، فعليك أن

Marfat.com

تفكر مَنْ مِنْ أبناء عمومتك في اسمه حرف الحاء؟ فقال نعمان: هم كثير: حسن وحماد وحميد وحمدان وإحسان وعبد الفتاح، من منهم؟

-قال الشيخ عجروش: سوف أخبرك من هو، ولكن ليس الآن، لأنه انصرف! فقال نعمان: من هو؟ فقال الشيخ: الذي انصرف الآن هو أمير من أمراء الجان، وسوف يأتي بعد شهر أو شهرين، وعليك أن تنتظر، وينبغي عليك في كل يوم أن تطعم عشرة كلاب، لكل كلب قرص، وآخر كلب تطعمه قرصين، وعليك أن تضع في كل قرص دجاجة مذبوحة وليست مجمدة، فقال نعمان: ليس لدي وقت! فقال الشيخ: أنا لا أستطيع، وإن لم تفعل ذلك حتى عودة أمير الجان، فقد يتسلط عليك الجان الذي كلف من قبل الساحر الذي ذهب إليه ابن عمك.

فقال نعمان: ما العمل؟

فقال الشيخ عجروش: سوف أساعدك وأطلب من أحد الأخيار أن يقوم بالعمل، وعليك أن تعطيه عشرة أو عشرين ريالاً، فقال نعمان: وإن لم أفعل؟ قال الشيخ: سوف يتسلط عليك الجان.

فقال نعمان: سوف أعطيك كل يوم مائة ريال، سبعة وسبعين ريالاً للدجاج، والبقية للخبز ولمن يقوم بإطعام الكلاب، والأجر من الله للشيخ عجروش الذي يقوم بهذه الخدمة، ولا يرجو إلا الثواب فقط، أعطه مبلغاً بسيطاً لدفع ضرر الجان، وعاد نعمان وهو خائف من أن لا يتمكن الشيخ

Marfat.com

عجروش من حمايته من أضرار الجان، وذهب إلى عمله، ثم عاد قبل غروب الشمس إلى السجن. وفي السجن وجد لقمان، فأخبره أنه ذهب للشيخ عجروش، وهو يملك كثيراً من الأسرار، ويتحكم في مجموعة من الجان، وأخذ يقص عليه كل ما حدث.

فقال له لقمان: انتبه يا نعمان، فقد وقعت في حبائل الشيطان، وسوف أظهر لك بالحجة والبرهان كذب الشيخ عجروش، سوف نلتقي في الصباح. وفي الصباح حضر لقمان، وبعد صلاة الفجر طلب من نعمان أن يحرق الورقة ويمسح بها على يده، ونفذ نعمان، وفجأة انتفض نعمان! وأصبح يردد: أعوذ بالله من الشيطان! ماذا حدث يا لقمان؟ هل أنت كذلك تتحكم في الجان؟ وأراد الهروب خوفاً من الجان! فقال لقمان: تَمْهَل، وأخرج من جيبه ليمونة، وطلب من نعمان أن يعصر الليمونة في كفه، وأعطاه (خِلال)-وهو ما يستخدم لتحليل الأسنان وإخراج الفضلات العالقة بينها-وقال له: اكتب على يدك: بسم الله، فكتب نعمان وهو حيران، ثم بعد فترة قال له: انظر هل ترى شيئاً مكتوباً على يدك؟ قال نعمان: لا أرى شيئاً مكتوباً على يدي، فأعطاه ورقة وقال له: احرق الورق، فأحرق الورقة، فقال له: امسح بالورقة المحروقة اليد التي كتبت عليها: بسم الله مستعملا عصير الليمون، وبعد ما مسح نعمان اليد ظهرت الكتابة واضحة، ونعمان يردد: مارد من الجان! مارد من الجان! فقال له لقمان: تمهل يا نعمان، إن هذا الذي حدث هو ما

Marfat.com

خدعك به المخادع عجروش، إنها خدعة، يمكن تنفيذها على أية يـد، ويقـوم بها الإنسان وليس الجان، كرر يا نعمان هذا العمل، وكرر نعمان العمل، حتى زال منه الخوف، وأخذ يضحك على نفسه، كيف تمكن الخبيث عجروش من خداعه وسلب أمواله؟

فقال لـه لقمان: سوف يلقى الخبيـث جـزاءه، فقـام لقمـان، وأجـرى اتصاله بلجنة الصحـة النفسـية في الجمعيـة الخيريـة للخدمـات الاجتماعيـة، وبلغهم ما حدث للسجين المسكين، وكيف خدعه ذلـك المخـادع اللئيـم، فقـام أعضاء اللجنة بدراسة الموضوع، وقرروا أن يبلغوا المسؤول، وبُلغ المسؤول، وبعد أيام كان عجروش في السجن مع نعمان وأقبل عليه نعمان وقال: كيف دخلت السجن يا ساحر؟ صرخ عجروش وقال: يا نعمان! أنا ساحر؟ أنا سـاحر؟ أنـا لا أستعين بالشياطين! أنا لا! فقاطعه نعمان وقال: أنت لا تستعين بالشياطين لأنـك أنـت شـيطان مـن الإنـس، أنـت قذفـت في قلـبي الخـوف، وكـدت أن تجعلني أقتـل نفسـاً مسـلمة، وجعلتـني أظـن في زوجـتي الظنـون، وجعلتـني أخاف من مخلوقات وهمية، أنت أنت

فقال لـه عجروش: حسبك، فأنت لديك القبول، أنـت الـذي سـلكت هذا الطريق، ولم أجبرك، أنت الذي بعثت لي، ولم آتك! ضحك نعمان وقال: قد جئت لي بنفسك الآن يا ساحر، يا شيطان، فقال عجروش: بغضب: قلـت

Marfat.com

لك لا تقل يا ساحر! قل أي كلمة أخرى، قـل مثـلاً يـا دجـال! لأن الدجـل شدة طلاء الجرب بالقطران وقد قال الشاعر:

وشوهاء تعدو بي إلى صارخ الوغى بمُسْتلْئم مثل البعير المُدَجَّل

فقد كنت مُمَوِّهاً لك، وطليت لك الكلام، وأخذت منك المـال، وزينـت لك الباطل، فكان عملي تلبيساً وتزييناً وليس سحراً!

–قال نعمان: لا بل أنت ساحر قال عجروش: عندما أظهرت الكتابـة لك، قمت بتلبيس الأمر عليك، فأنا أجعل الكتابة تظهر أحياناً.

قاطعه نعمان، وقال: قد عرفت الأمر، وأخـبرني بـه الشـيخ لقمـان، نعم، الشيخ لقمان، وليس عجروش المنحوس.

–قال عجروش: كيف عرفت؟ فأخبره بما قام به الشيخ لقمان، وكيف أنه أخبره أن بعض ضعاف النفوس مثـل عجـروش يستخدمون مـاء الليمـون، وأحياناً ماء البصل، ويكتبون أحيانا على اليـد، وأحيانـاً علـى ورقـة بيضـاء، ويطلبون من الضحية وضع الورقـة تحـت رأسـه، وفي الصبـاح يـأتي الضحيـة بالورقة، ليقرأها ذلك المخـادع، ويقـول لـه: انظـر إلى الورقـة وهـي بيضـاء، ويُعَرِّضُها لنار خفيفة، فتظهر الحرارة الكتابـة الـتي قـد كتبـها المخـادع بمـاء البصل أو الليمون، ولم تظهر بالعين المجردة، وظهرت لطريق الحرق الخفيف بالحرارة.

Marfat.com

فقال عجـروش: لم أتوقـع عنـد دخـولي إلىْ السـجن أنـك أنـت سـبب دخولي، وسوف أسلِّط عليك الجان.

ضحك نعمان، وقال: ألم تقل إنك لست بساحر! اعلم يا عجروش أن الشيخ لقمان جعلـني لا أخـاف إنسـاً ولا جانـاً، فقـد ذكَّرنـي بالسـنة والقرآن، فحصنت نفسي بالمعوذاتِ، وخواتم سورة البقرة، وأصبحت أقـرأ سورة البقرة كاملة، فلا أخشى أمثالك، أعوذ بكلمات الله التامـة مـن كـل شيطان وهامة أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق.

قاطعه عجروش، وقال لـه: سوف ترى كيف أفعل بك، أنت تعلم أن السحر حق، أم تنكر السحر والجان؟ قال نعمـان: السـحر حـق بنـص القرآن، والجان خلقهم ربـي وربك منْ مـارجٍ مـن نـار، قـال عجـروش: مادمت مقراً بالسحر والجان فسوف تخاف؟ قال نعمان: أخاف! لو كنت تملك الجان لمـا وجدتـك بين الأربعـة حيطـان، يـا جبـان، أمـا تخشـى الرحمن؟ أما تخشى الموت والقبر والنشور؟ قاطعه عجـروش وقـال: لسـت أدري.

Marfat.com

أوراءَ القبرِ بعدَ الـموتِ بَعْـثٌ ونشـور؟
فحيـاةٌ، فخلـودٌ، أم فنـاءٌ فدثـور؟
أكـلامُ الناسِ صِدقٌ أم كلامُ الناس زور؟
أصحـيحٌ أن بعـضَ النـاسِ يـدري؟
لستُ أدري

إن أكن أُبعَثُ بعدَ الموتِ جُثماناً وعقلاً
أتُرى أُبعِثُ بعضاً أم تُـرَى أُبعَثُ كُلاً
أتُرَى أُبْعَثُ طفلاً أم تُرى أبْعَثُ كَهلاً؟
ثمَّ هلْ أعـرفُ بعـدَ البعـثِ ذاتـي؟
لستُ أدري

التفت نعمان إليه، وقـال: حسبك: (أفمـن يمشـي مكبـاً علـى وجهـه أهدى أم من يمشي سَوِياً على صـراطٍ مستقيم) صـدق الله العظيـم، فقـد كنـت أظنك ساحراً تمتلك الجان، أما الآن فأنت أشد من الشـيطان، لأنـك لا تؤمـن بالغيب ولا القبر ولا البعث، وقطع حديـث نعمـان صـوت شـينان، وقـال: يـا نعمان سوف أخبرك! ماذا قال شينان لنعمان؟ بدأ يحدثه حديثاً طويلاً.

Marfat.com

(راضي): يا إلهي كنت أظن أن الجريمة من المجرمين، ثم ظهر لي أنها قد تكون من رجال آخرين، من أدعياء الدين وهم في ضلال مبين، كلا، كلا، كيف يعرفون الحق ويجتنبونه والباطل فيأتونه؟ ألم يفكروا في جنة ونار باتخاذهم طريق الضلال وتسخير فهمهم المريض للدين في مغضبة رب العالمين؟!

صادق: إنها الخطيئة.

راضي: ما هي الخطيئة؟ ما صفاتها؟ ما سماتها؟

صادق: أسئلة كبيرة تحتاج لعلم غزير، فلنذهب إلى مائدة الرحمن، فلنذهب لحامل القرآن، فلنذهب لشيخنا الشيخ عبد التواب، لعله يزيل عني وعنك كثيراً من اللبس والغموض، ويشرح لنا المبهم، ويوضح لنا ويشرح الخطيئة ومفهومها.

يذهب الاثنان إلى الشيخ عبد التواب، وبعد السلام أخذا يشرحان له ما دار من حوار بين راضي وأخيه صادق، وأنهما يريدان معرفة مفهوم الخطيئة.

الشيخ عبد التواب: قد حدثتكما في السابق عن التوبة والتوبة تحدث باقتراف الفرد للخطيئة، والسؤال قد يكون: ما الخطيئة؟

الخطيئة والذنب: اعلم ياولدي أن الخطيئة هي اقتراف الذنب عمداً.

Marfat.com

والذنب: هو الوقوع في الإثم والمعصية، أي أن الإثم هو الذنب، أي عمل ما لا يحل، كما أن الفسوق يعني العصيان بترك أمر الله والخروج على شرع الله والميل إلى المعصية، وبذلك يكون الفرد أساء إلى نفسه أو إلى غيره بارتكاب المنكر، لأن السوء هو الفجور، والمنكر والسيئة هي الخطيئة، ولذلك على العبد أن يبتعد عن العصيان، وهو خلاف الطاعة للرحمن، فيجاوز الحدود، أي يكون عاتياً، لأن العتوّ هو التجاوز للحد والمبالغة في ركوب المعاصي وعدم قبول الموعظة والنصح، وبذلك يتحقق الفساد، وهو نقيض الصلاح (طبارة، ١٩٨٢هـ : ١٨-١٩).

وقد أرشد معلم هذه الأمة ﷺ فكشف عن الذنوب وأضرارها، والتوبة وأنوارها، فقال السيد المحبوب عن الذنوب: **(إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، فإن زاد زادت، فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه** (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (سورة المطففين: ١٤) صدق الله العظيم (الألباني، ١٩٨٨م: ٤١٧/٢). ويقول الحبيب ﷺ: **(لا يزيد في العمر إلا البر، ولا يردُّ القدرَ إلا الدعاء، وإن الرجل ليحرم الرزق بخطيئة يعملها)** (الألباني، ١٩٨٨م: ٢٢/١).

ويقول سبحانه وتعالى (مَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا }٢ {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) (سورة الطلاق : ٢-٣).

Marfat.com

ويقول سبحانه (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ). (سورة الزمر : ٥٣) ويؤكد الحبيب المصطفىﷺ، ويقول: (**لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم عنان السماء ثم تبتم لتاب عليكم**) (الألباني، ١٩٨٨م: ٤١٧/٢).

وقد أخبر الصادق المعصوم ﷺ أنْ التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وأكد على أن كلَّ بني آدم خطَّاء وخير، الخطائين التَّوَّابون، ووضح عليه الصلاة والسلام أن الندم توبة، وأظهر أن الله عز وجل لَيَقْبَلُ توبَةَ العبْدِ ما لَمْ يُغَرْغِرْ، وسبيل زوال الذنوب هي كثرة الحسنات، لأن الحسناتُ يذهبن السَّيئات، وذكر-فداه أبي وأمي ونفسي ومالي وولدي قصة الرجل الذي أسرف على نفسه، وهي القصة التي ذكرْتها لكماِ سابقاً، وتوضح خوفه وخشيته وخجله من الله عز وجل، لذلك نجده عندما حضرهُ الموت أوصى بنيه أنه إذا مات فعليهم أن يحرقوه، ثم يسحقوه، ثم يذروه في الريح في البحر.

وقال لهم: والله لئن قدر عليَّ ربي ليعذِّبني عذاباً ما عذبه أحداً، ثم وضح عليه الصلاة والسلام أن أبناءه فعلوا به ذلك، فقال سبحانه للأرض: أدِّي ما أخذت، فإذا هو قائم، فقال له: ما حملك على ما صنعتَ؟ قال: خشيتك (أو مخافتك) يارب! فغفر له، لذلك (الألباني، ١٩٨٨م: ٤١٨/٢-٤١٩).

وينبغي للمسلم أن يدرك أن الخطايا في الإسلام تنقسم إلى كبائر وصغائر.

Marfat.com

الكبائر: هي كل ما نهى الله ورسوله عنه في الكتاب والسنة والأثر عن السلف الصالح من هذه الأمة. وقال بعض السلف: كل عمدٍ كبيرة، وكل ما نهى الله عنه فهو كبيرة، وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى ما دونه، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه (الغزالي، ١٣٩٥هـ: ١١/١٧٢).

واعلم أن الصغيرة تكبر بأسبابها، ومنها الإصرار والمواظبة، ولذلك قيل: لا صغيرة مع إصرار، ولا كبيرة مع استغفار: كما أنه كل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة، ولا يمكن أن تتصور كبيرة وحدها، كما أن الذنب إذا استعظمه العبد في نفسه صغر عند الله تعالى، وكلما استصغره العبد كبر عند الله تعالى، ولذلك فإن الذنب يعظم في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله، فإذا نظر إلى عظم من عصى، رأي الصغيرة كبيرة. (الغزالي، ١٣٩٥هـ: ١١/١٩٥-١٩٦).

وقد قيل: لا صغيرة، بل كل مخالفة كبيرة، وقيل كذلك: الكبيرة ما كانت حراماً محضاً، وسميت في الشرع فاحشة، وشرع لها عقوبة خاصة في الدنيا بالحد أوفي الآخرة بالوعيد بالنار أو باللعن. والكبيرة لا يكفِّرها إلا التوبة، أما الصغيرة فلها مكفرات كثيرة، منها الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، والاستغفار، والعمرة (المحاسبي، ١٩٧٧م: ٥٨).

ورحم الله القائل:

خلِّ الذنوبَ صغيرَها — وكبيرَها ذاك التُّقى
واصنعْ كماشٍ فوقَ أرْ — ضِ الشَّوْكِ يَحذر ما يَرى
لا تحقِرَنَّ صَغيرةً — إن الجِبالَ مِنَ الحصَى

Marfat.com

وقد قال أبو حازم رحمه الله: إن العبد ليعمل الحسنة تسره حين يعملها، وما خلق الله سيئة أضر له منها، وإن العبد ليعمل السيئة حتى تسوءه حين يعملها، وما خلق الله من الحسنة أنفع له منها، وذلك أن العبد ليعمل الحسنة تسره حين يعملها، فيتجبر فيها، ويرى أن له بها فضلا على غيره، ولعل الله تعالى أن يحبطها، ويحبط معها عملاً كثيراً. وأن العبد حين يعمل السيئة تسوءه حين يعملها، ولعل الله تعالى يحدث له بها وجلا، يلقى الله تعالى، وأن خوفها لفي جوفه باق. (خليل، ١٤٢٠هـ: ١٨٨).

وقد ضمن الله عز وجل في كتابه الكريم أن يكفر صغائر السيئات لكل من اجتنب الكبائر، فقال سبحانه وتعالى: (إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا) (سورة النساء: ٣١)

وهو دليل واضح لكل من أراد أن يسلك طريق الهداية، بأن يدرك أن اجتناب الكبائر جالب لتكفير السيئات، وليس هذا فحسب، بل يكفل الكريم سبحانه وتعالى بإدخال مجتنب الكبائر مدخلاً كريماً.

والكبائر اختلف أصحاب المصطفى ﷺ في عددها، فمنهم من جعلها سبعة، ومنهم من قال: إنها أقرب إلى السبعين من السبعة، وهو قول ابن عباس رضي الله عنه، أما من قال إنها سبعة، فلقوله ﷺ: (اجتنبوا السبع الموبقات / فذكر منها: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف

Marfat.com

المحصنات الغافلات المؤمنات،). (الذهبي، د.ت: ٧–٨). وبذلك يتضح أن الكفر والشرك بالله هو أعظم الكبائر، وقد سئل سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن الكفر، على ماذا بني؟ فقال: بني على أربع دعائم: على الجفاء، والعمى، والغفلة، والشك. فمن جفا احتقر الحق، وجهر بالباطل ومقت العلماء، ومن عمي نسي الذكر، ومن غفل حاد عن الرشد، ومن شك غَرَّته الأماني، فأخذته الحسرة والندامة، وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب. (الغزالي، ١٣٩٥هـ: ٣٠/١٢).

وقيل عن الكبيرة هي:

أربع في القلب وهي: ١. الإصرار على المعصية. ٢. الشرك بالله.
٣. اليأس من رحمة الله. ٤. الأمن من مكر الله.

أربعة في اللسان وهي: ١. شهادة الزور. ٢. قذف المحصنات.
٣. السحر. ٤. اليمين الغموس.

ثلاث في البطن وهي: ١. شرب الْخمر. ٢. أكل مال اليتيم. ٣. أكل الربا.

اثنتان في الفرج وهي: ١. الزنا ٢. اللواط.

اثنتان في اليد وهي: ١. السرقة. ٢.القتل.

واحدة في الرِّجلين وهي: ١. الفرار من الزحف.

واحدة في جميع البدن وهي : ١. عقوق الوالدين.

(الصفوري الشافعي، ١٤٠٨هـ: ٣٧٩).

Marfat.com

ورحم الله الإمام جعفر الصادق فقد قال: من أراد عزاً بلا عشيرة، وهيبة بلا سلطان، فليخرج من ذل معصية الله إلى طاعة الله، واعلم أن من لا يملك لسانه، يندم وأن من يصحب صاحب السوء، لا يسلم، وأن من يدخل مدخل السوء، يتهم (الغزالي، ١٤٠٥هـ: ٢٦٧). وصمت الشيخ عبد التواب برهة، ثم قال: قد أكثرت من الكلام، أسال الله الكريم أن لا يكون كلامي شاهداً ضدي يوم العرض عليه، حسبي ما وضحت لكما، فمن لا يملك لسانه، يندم، فقد مضى وقت طويل وأنا أتحدث، وأنتما تستمعان، وأنا أريد منكما أن تتكلما، وأنا أستمع، فقد أجد في حديثكما ما أنشده.

ورحم الله القائل:

إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى ... وسِرُّك محفوظ وعرضُكَ صيّنُ

لسانك لا تذكر به عورة امرء ... فكلك عورات وللناس ألسُنُ

وعينك إن أبدت إليك معايبا ... فصنها وقل يا عين للناس أعينُ

Marfat.com

راضي: ياشـيخنا، نريـدك أن تتحـدث لنسـتفيد، فقـد كـان حديثـك محركاً للقلب والنفس والعقل، وجعلني في داخلـي أقـول: يـا إلهـي، الكبـائر وسيلة لإخضاع النـاس للـهوى والشـيطان! الكبـائر هـي وسـيلة للقضـاء علـى الفضيلـة وسـيادة الرذيلـة! الكبـائر هـي وسـيلة تشـترك في تحقيقـها جميـع الأعضاء، وأكثرها في القلب واللسان!.

الكبائر كابوس ثقيل وأداة من أدوات الشيطان، الكبائر لا سبيل للحـد من أضرارها إلا بالتوبة.

صادق: ما هذه العلوم والفنون يا راضـي، فقـد أصبـح كلامـك مشـابهاً لكلام الوعاظ والعلماء والدعاة إلى الله الذين ينادون لاغتنام الحيـاة للوصـول إلى الهدف المنشود وهو جنة الخلود.

راضي: أنا لست من الوعـاظ أو العلمـاء أو الدعـاة، بـل أنـا أقـلُّ ممـا تتصور، فأنا ما زلت رهين الأخطاء والذنوب، رغـم أنـني قلـت: يـاربي إنـي أتوب، يارب إني أتوب، يارب إني أتوب.

صادق: خطر في ذهني كلام السيد الجيلاني-رحمه الله-فقد قال:

(يا قوم) انتهزوا واغتنموا باب الحياة ما دام مفتوحاً، عن قريب يغلـق عنكم، اغتنموا أفعـال الخـير مـا دمتـم قـادرين عليـها، اغتنمـوا بـاب التوبـة وادخلوا فيه مادام مفتوحاً لكم، اغتنموا باب الدعاء فهو مفتوح لكـم، اغتنمـوا باب مزاحمة إخوانكم الصالحين فهو مفتوح لكم.

Marfat.com

(يا قوم) ابنوا ما نقضتم، اغسلوا ما نجستم، أصلحوا ما أفسدتم، صفّوا ما كدرتم، ردوا ما أخذتم، ارجعوا إلى مولاكم عز وجل من إباقكم وهربكم. (الجيلاني، ١٤٠٣هـ : ١٩).

أخذ الشيخ (عبد التواب) يبكي، ويقول: ما أجمل حفظك وأعذب لقطك، فقد أعدتني مرة أخرى للقضية الأساسية، وهي التوبة التي ذكرتني بها من خلال كلام الشيخ الجيلاني-رحمه الله،-وسوف أقرأ لك مما كتبته عن شيخي، فقد كتبت عنه قوله: على المسلم أن يعود إلى الله، لأن من أذنب يجد رباً تواباً رحيماً، وقد صدق القائل:

من أذنبوا تابوا فإن رجعوا ... للذنب يوماً كنت توابا
وتسوق آيات الهدى ليروا ... بعد الذنوب لتوبة بابا
وتنبه العاصين كي يجدوا ... للعفو بعد الذنب أسبابا

والتوبة تكون عندما تشمل مباهجُ الدنيا على الإنسان، وتبعده عن طريق الرحمن، فيمتلك الإنسان ما أعطاه الله، ويظن أنه من عنده ،فيصول، ويجول، ويتكبر، ويتجبر، فينسى الآخرة، وينسى أن الدنيا مزرعة الآخرة، فينخرط في ملذات الحياة، وينسى القبر! رحم الله الشاعر المذكر بالآخرة القائل:

Marfat.com

أيُّها المعجبُ فخرا		بمقاصير البيوت
إنما الدنيا مَحَلٌ		لقيام و قنوت
فغداً تنزل بيتاً		ضيقاً بعد النحوت
بين أقوام سكوت		ناطقات في الصموت
فارضَ في الدنيا بثو		ب ومن العيش بقوت
واتخذ بيتًا ضعيفاً		مِثْلَ بيت ِ العنكبوت
ثم قل: يا نفس هذا		بيت مثواك فموتي

ولعله بسبب انشغال الإنسان وبتقلب النفس الأمارة بالسوء يكون الهوى وحث الشيطان على فعل الملذات والمنكرات ونسيان الآخرة والانشغال بالفانية، وصدق الشاعر القائل:

أما والله لو علم الأنام		لما خلقوا لما هجعوا وناموا
لقد خلقوا لأمر لو رأته		عيون قلوبهم تاهوا وهاموا
ممات، ثم قبر، ثم حشر		وتوبيخ، و أهوال عظام
ليوم الحشر قد عملت رجال		فصلوا من مخافته وصاموا
ونحن إذا أمرنا أو نهينا		كأهل الكهف أيقاظ نيام

فالانغماس في الحياة والانشغال بها يجعل الإنسان حياته أقرب للموت، لأنه موجود، لكن لا يعمل ما يرضي صانع الوجود، ولا يعتبر بما يحدث أمامه، ولا يعد العدة ليوم الرحيل يوم الفراق يوم ترك الدنيا بكل ما فيها، فلا يأخذ معه شيئاً وصدق القائل:

Marfat.com

ألا أيها الناسي ليوم رحيلَــه	أراك عن الموت المفرِّق لاهيــا
ألا تعتبر بالظاعنين إلى البلى	وتركهم الدنيا جميعاً كما هيـا
ولم يخرجوا إلا بقطن وخرقة	وما عمروا من منزل ظل خاليا
وأنت غداً أو بعده في جوارهم	وحيداً فريداً في المقابر ثاويــاً

فعلى الإنسان أن يعد العدة للرحيل، ويندم على ما فات، ويقبل علـى الله، ويقلع عن السيئات، ويعمل الصالحات، ويبتعـد عـن أمـاكن المنكـرات، ويتقدم إلى أماكن النفحات والطاعات، ليجد ربـاً كريمـاً، لا يـرد يـداً بسـطها عبده التائب العائد إليه، بل يجده قابل التوب، فالكَيِّسُ مـن لا يعـرِضْ عـن الله، ويثق برحمة الله ويخشى عقاب الله. وصدق القائل:

أتعرض عنا والجناب فسيــــح	وتهرب منـا إنَّ ذا لـقبيـح
ويبدو لنا من نجوك الصد والجفا	ومن نجونا ودٌّ لديك صـحيـح
وندعوك للحسنى ونمنحك الرضا	وأنت لأسباب البعاد جـمـوح
وكم مرةٍ جاءتك مـــنا رسائـل	وفيها خطاب لو سمعتَ فصيح
فيا أيها الغصن الرطيب قوامــــه	وفيـه لنـــا سر يصان و روح
إليك أشرنا بالوداد فـــكل مـــا	يعد قبيحا فهـو مـنك مليـح

ولذلك على الإنسان العاقل أن يقبل على الله، ويحظـى بالرضـا مـن الله، ويتعظ، ويبتعد عن أبواب النار، ويقبل على أبـواب الجنـة بكـل مـا يرضـي الله، ويبتعد عن أبواب النار الثلاثة التي أدخلت الناس النار، وهي باب الشـبهة الـتي

Marfat.com

أورثت شكاً في دين الله، أو من باب الشهوة التي أورثت تقديم الهوى على طاعة ومرضاة الله، أو من باب الغضب الذي يورث العدوان على خلق الله.

وعلى العاقل أن يبتعد عن أصول الخطايا، وأعظمها الكبر، الذي جعل إبليس مطروداً من رحمة الله، والحرص الذي أخرج أبا البشر آدم من جنة الله، والحسد الذي جعل ابن آدم يقتل عبداً من عباد الله وهو أخوه الذي خلقه الله، وبذلك يكون واضحاً لكل صاحب بصيرة أن الكفر من الكبر، والمعاصي من الحرص، والبغي والظلم من الحسد.

فالعاقل من طَوَّعَ نفسه لأوامر الله، لأن لأوامر الله حكماً، قد يعرفها أو لا يعرفها الإنسان، لأن الخالق جعل لكل جزء من أجزاء ابن آدم ظاهره وباطنه أداة لشيء، إذا استخدمه الإنسان حسب أمر الله وصل إلى كماله، فالعين آلة النظر، والأذن للسماع، والأنف للشم، واللسان للنطق، والفرج للنكاح، واليد للبطش، والرجل للمشي، والقلب للتوحيد والمعرفة، والروح للمحبة، والعقل للتفكير، والتدبر واختيار ما ينبغي اختياره وترك ما ينبغي تركه وإهماله، وإن أخسر البشر من اشتغل عن الله بنفسه أو من اشتغل عن نفسه بالناس (ابن القيم، ١٤٠٣هـ: ٦٧).

توقف الشيخ ثم قال: قلت لكما لا أريد الحديث، لكن صحبتكما ومحبتكما للعلم والمعرفة تجعلني لا أكتم عنكما علماً، كي لا ألجم بلجام من نار، أستودعكما الله وسوف أراكما غداً إن شاء الله إن كان في العمر بقية.

Marfat.com

أخذ صادق يستعيد في ذهنه أحداث السجن، وتذكر من كان يذكره بالله، ويجلس معه هذه الجلسات الإيمانية مع الشيخ عبد التواب، إنه أخوه في الله محسن رحمه الله، ثم التفت إلى راضي، وقال: أتذكر (محسنا) وعلمه وحلمه فقد كنت دائماً في صحبته في جلسات مماثلة لهذه الجلسة مع الشيخ عبد التواب، رحم الله محسناً، رحم الله محسناً، رحم الله محسناً، فقد كان معروفاً في السجن بعلمه وفضله ورغبته في تقديم الخير، وكان يحاول دائماً الانتفاع بالوقت، ويستغل كل دقيقة في سبيل التذكير، وكان يذكر قصص التوابين وأقوال العلماء العاملين.

راضي: رحمه الله، لم أعرفه حق المعرفة، لكن من خلال جلوسي معك أدركت مدى أثره عليك وحبك له وأخذك الكثير من العلوم منه، لأنه كان أكثر الناس ملازمةً للشيخ عبد التواب الذي يسرد القصص ويستخلص العبر، وأذكر القصة التي أخبرتني بها، وهي قصة العبد كثير المعاصي، وقد قصها عليك محسن رحمه الله، وقد نسيت بعض تفاصيلها، فهل تتكرم بذكرها مرة أخرى؟

صادق: رحم الله محسناً، حيث قال:

يحكى أنه فيمن سبقنا من الأمم عبد كثير المعاصي، كثير الذنوب، أدركته العناية الإلهية، فاستيقظ في آخر عمره من سبات الغفلة، وعضَّ أصابع الندم، وقال لأهله: هل من شفيع يشفع لي عند الله؟ قالوا: لا يوجد عندنا من

Marfat.com

يشفع لك عند الله. فخرج إلى وادي، فطـرح نفسـه علـى الـتراب، وقـال: يـا إلهي أنت العالم بضري ودوائي، قد جئتك بفقر فادح، وعمل غير صالح، ولم أجد لي شفيعاً يشفع، ولا حصناً منك يمنع، فاصنع بي يا إلهـي وخـالقي مـا يليق بكرمك، فهتف هاتف، وأصبح الرجل كأنه يسمع من يقـول: مـا يصنـع الكريم الرؤوف بمن وقف على بابه هذا الوقوف؟ قد بدلت السـيئات حسـنات ورفعت لك الدرجات.

راضي: نعم، نعم يا راضي فقد ذكرتـني كذلـك بحديـث محسـن عـن الفضيل-رحمه الله-أنه قال:

يا مسكين، تغلـق بـابك؟ وترخـي سـترك؟ وتسـتحي مـن النـاس؟ ولا تستحي من الملكين اللذين معك؟ ولا تستحي من القـرآن الـذي في صـدرك؟ ولا تستحي من الجليل وهو لا يخفى عليه خافية؟

صادق: أحسنت، أحسنت يـا راضـي، فقـد حفظـت في فـترة قصـيرة أشياء كثيرة، جعلها الله في ميزان حسناتك يوم لا ينفع مالٌ ولا بنـون إلا مـن أتى الله بقلبٍ سليم. فالتوبة ينبغي أن يحرص عليها كل إنسان، لأنـها بـاب القبول من الحنان المنان، وقد أخبرني الشيخ عبد التواب عن قول سيدنا عبـد الله بن عباس رضي الله عنهما، وقد كتبته، وسوف أقرأه لك:

إن الله جعل التوبة مقبولة بكرمـه ومَنِّـهِ، فنعـم المـولى ونعـم النصـير، وبئس العبد، عبد غذاه ببره، ورباه تحـت سـتره، ولا يخـاف عنـد مخالفتـه

Marfat.com

أمره، بئس العبد، عبد عصى، وتعدى، وجنى، وتوانى، نـهاره لهـو، وليلـه سهو، بئس العبد عبد أصـر علـى الجهالـة، وضيـع أيامـه في البطالـة، بئـس العبد، عبد يعلم أن مولاه يراه، وهو يبارزه ولا يخشاه.

ونعم المولى، مولى سترك بستره، ولاطفك ببره، مولى يقبـل الحسـنات، ويغفر السيئات، مولى إن أطعته شكر، وإنْ عصيته ستر، وإن تبـت إليـه قبـل وغفر، إن دعوته لباك، وإن قصدته أدناك، وإن أعرضـت عنـه نـاداك، مـولى توجك بهدايتـه، وطوقـك بعبادتـه، وسـربلك بخدمتـه، وأركبـك علـى مطيـة محبته، مولى يغفر ذنوب العمر بتوبة ساعة، ثم يبدل مكان كل سـيئة طاعـة، مولى أقام لك الشفعاء قبل العصيان، فنعم المولى ونعم النصير.

وكذلك أذكر أن الشيخ عبد التواب ذكرني ما قاله يحي بن معاذ رحمه الله، حيث قال:

ابن آدم، احذر الشيطان، فإنه عتيق، وأنت جديد وهو فـارغ، وأنـت مشغول، وهمته واحدة، وهـي هلاكـك، وأنـت معـك همـم كثـيرة، والشـيطان يراك، وأنت لا تراه، وأنت تنساه وهو لا ينساك، ومن نفسك للشيطان عـون، فمن غلبه هواه افتضح.

راضي: ما أجمل حديث سيدنا عبد الله بن عباس رضـي الله عنـهما، فقد وضح المنـهج والطريـق، وذكرنـي بقصـص ذكرهـا الشـيخ عبـد التـواب في

Marfat.com

المسجد، فقد قرأ ما أورده حجة الإسلام أبو حامد الغزالي-رحمه الله-ي مكاشفة القلوب كثيراً من الحكايات والأقوال، منها: **حكاية العاشق التائب**:

حكي أن رجلاً من المسلمين تعلق قلبه بامرأة، وأصبح الرجل دائم الفكر في تلك المرأة، وأخذ يتابعها إلى أن خرجت في حاجة لها مع قافلة مسافرة، واستطاع أن يجد فرصة ليخلو بها، فلما خلا بها وقد نام الخلق فأقدم وأخبرها بما في قلبه، وأنه متعلق بها، فقالت له: انظر، أنام الناس بأجمعهم؟ ففرح الرجل بقولها، وظن أنها قد أجابته، فقام سريعاً وأخذ ينظر حول المكان ثم عاد وهو فرح يقول لها: إن الناس نيام، فقالت له: أنام من عينه على الدوام لا تغفل ولا تنام؟ فقال لها: إن الله تعالى لا ينام ولا تأخذه سنة ولا نوم، فقالت المرأة المسلمة: إن الذي لم ينم ولا ينام يرانا وإن كان الناس نياماً، فذلك أولى أن يخاف منه، فاشتعلت شمعة الإيمان في قلب ذلك الإنسان، وندم على ما أقدم من العصيان، وصمم أن يترك تلك الآثام، وأقلع عن العمل، أي أنه تاب، وأناب، ورجع إلى الملك الوهاب التواب، ورجع إلى وطنه.

وقيل: إنه بعد أن توفي رآه بعض أصحابه في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي وتاب عليَّ لتركي ذلك الذنب (الغزالي، ١٤٠٥هـ: ٢٠).

صادق: نعم، نعم يا راضي، ما أجمل حديثك، وهنا أذكر أن الشيخ عبد التواب في تلك الجلسة توقف بعد هذه القصة، وذكر لنا ما قاله بعض الحكماء: من استولت عليه النفس صار أسيراً في حب شهواتها محصوراً في سجن هفواتها، ومنعت قلبه من الفوائد، ومن سقى أرض الجوارح بالشهوات

Marfat.com

فقد غرس في قلبه شجرة الندامة. إن الله تعالى خلق الخلق على ثلاثة ضروب: خلق الملائكة وركب فيهم العقل ولم يركب فيهم الشهوة، وخلق البهائم وركب فيها الشهوة ولم يركب فيها العقل، وخلق ابن آدم وركب فيه العقل والشهوة، فمن غلبت شهوته عقله فالبهائم خير منه. وقد استشهد الشيخ عبد التواب بقول الشاعر:

إني ابتليت بأربع ما سلطوا ... إلا لشدة شقوتي وعنائي
إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... كيف الخلاص وكلهم أعدائي
وأرى الهوى تدعو إليه خواطري ... في ظلمة الشهوات والآراء

وهذه الأربعة هي أساس الشقاء وطريق البلاء والقائدة إلى الغفلة.

وقد ذكر لي أخي محسن رحمه الله: أن رجلاً من الصالحين رأى والده في منامه، فقال له: يا أبت كيف أنت وكيف حالك؟ فقال له: ياولدي عشنا في الدنيا غافلين، ومتنا غافلين. لذلك ينبغي دائماً أن نذكّر بعضنا بعضاً كي لا نكون من الغافلين، فقد تكون التذكرة طريقاً إلى التوبة وإزالة الغفلة عن القلب كما حدث في قصة عتبة مع الحسن البصري رحمه الله.

راضي: لماذا توقفت يا صادق. ولم تذكر القصة التي أشرت إليها؟ فقد شوقتني لمعرفتها.

صادق: حسناً يا راضي: قد كان عتبة غلاماً من أهل الفسق والفجور مشهوراً بالفساد وشرب الخمر، فدخل يوماً إلى مجلس الحسن البصري-رحمه

Marfat.com

الله–وهو يقرأ قوله تعالى (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ) (سورة الحديد: ١٦) فأثرت في قلوب الآخرين، فأخذ الناس في البكاء، فقام شاب، وقد أثرت المواعظ في قلبه، وسأل الحسن البصري رحمه الله: أيقبل الله تعالى الفاسق الفاجر مثلي إذا رجع وتاب؟ فقال الحسن البصري رحمه الله: نعم يقبل الله توبة فسقك وفجورك. فلما سمع عتبة كلام الشيخ اصفر لونه، وارتعدت فرائصه، وصاح صيحة، ثم غشي عليه، فلما أفاق دنا منه الحسن–رحمه الله–وقال:

أيا شاباً لرب العرش عاصي ... أتدري ما جزاء ذوي المعاصي

سعير للعصاة لها زفير ... وغيظ يوم يؤخذ بالنواصي

فإن تصبر على النيران فاعصه ... وإلا كن عن العصيان قاصي

وفيما قد كسبت من الخطايا ... رهنت النفس فاجهد في الخلاصي

فصاح عتبة، وخر مغشياً عليه، فلما أفاق أقبل بوجهه على الإمام، وقال: ياشيخ هل يقبل الرب الرحيم توبة مثلي اللئيم؟ فقال الشيخ: هل يقبل توبة العبد الجاني إلا الرب المعافي؟ فقام الشاب، ورفع رأسه، ودعا الله بثلاث دعوات:

الأولى قال: إلهي إن كنت قبلت توبتي وغفرت ذنوبي، فأكرمني بالفهم والحفظ حتى أحفظ كل ما سمعت من العلم والقرآن.

والثانية قال: إلهي أكرمني بحسن الصوت حتى إن كل من سمع قراءتي يزداد رقة في قلبه وإن كان قاسي القلب.

Marfat.com

والثالثة قال: إلهي أكرمني بالرزق الحلال، وارزقني من حيث لا أحتسب. فاستجاب الله جميع دعائه، حتى زاد فهمه وحفظه، وكان إذا قرأ القرآن تاب كل من سمع قراءته.

واستمر الحوار بين راضي وصادق، وفجأة شعر (راضي) بألم شديد، وتوقف الحديث بين الصديقين، وطلب المساعدة من المسؤولين، وأعطي بعض الأدوية، إلا أنَّ الألم أخذ يشتد، فغادر (راضي) السجن في منتصف النهار، بعد أن ودعه زميله (صادق)، وقد نقل في سيارة الإسعاف، لأن شدة الألم جعلت المسؤولين عن السجن يقومون بنقله إلى المستشفى، وسارت به سيارة الإسعاف، إلى أن وصلت إلى قلب المدينة، حيث موقع المستشفى لقيام بالكشف عليه.

سيارة الإسعاف هي التي جاءت به إلى هذا المكان المكتظ بالناس، والسيارات، والجو الخانق، ودخل إلى مكان الطوارئ، وأخذوا في الكشف عليه، واضطروا إلى بعثه إلى غرفة الأشعة، ووضع على الطاولة البيضاء، وبدأ الطبيب بالتصوير. وهو يشاهد في الجهاز أجهزته الداخلية وهي تتحرك كالموج المتلاطم، وكأنها تقوم بعملية هجوم، ما أعجب ما بداخل الإنسان، وما أصعب معرفة كامل الإنسان، ثم قام الطبيب بعمل التقرير الذي يقضي بضرورة تحليل الدم، وأخذوا (راضي) إلى مختبر تحليل الدم، وهناك كانت المفاجأة، فقد وجد عمه، وما أن شاهده حتى أخذ يصرخ: عمي، عمي، عمي، فنظر

Marfat.com

العم إليه بشوق شديد، وأخذ يحرك يده، ويشير، ولم يفهم (راضي) ما يريد، فأقبل المرض وقال أتعرف هذا الرجل، قال (راضي): نعم.

-قال المرض: إنه منذ فترة في المستشفى بعد أن وجد في أحد صناديق المخلفات مع القاذورات، مقطع الرجلين، مبقور البطن، لا يسمع بعد أن قام شخص بخرق طبلة الأذن، ولا يتكلم بعد أن قطع لسانه.

راضي: أخذ ورقة وكتب لعمه ماذا حدث؟ فلم يستجب عمه بل أصابه ذهول، وذهب في غيبوبة.

قدم الطبيب، وأخذ من راضي الدم لتحليله، بينما الطبيب الآخر كان مشغول بتقديم المساعدة لعم (راضي)الذي فقد الشعور وذهب في غيبوبة، وكان الشرطي المصاحب (لراضي) ينظر إلى ما حدث، وأقبل على (راضي)، وقال له: كدت أن تقتل الرجل، ولو لا أن الشيخ عبد التواب أوصاني بك، لما تركتك تكتب له ما كتبت، فماذا كتبت له؟ فقدم له (راضي) الورقة والسؤال الموجود، فنظر إلى الورقة، فلم يجد ما يثير الريبة أو الشكوك، فقال له: هل تعرفه.

-قال راضي: نعم.

وفي هذا الوقت أفاق الرجل من إغمائه، وأخذ يصدر أصواتا غير مفهومه، وأخذ يشير بيده إلى (راضي)، وأخذ يسأله: ماذا حدث له؟ فقال

Marfat.com

(راضي): قد تبت إلى الله. ثم تذكر أن عمه قد أُغْتُدِيَ على سمعه فأخذ ورقة وكتب له. فأشار له عمه: كأنه يسأله ماذا يقصد؟

فقام راضي وأخذ يكتب لعمه بخط كبير: قد تبت إلى الله ياعمي، فهل من توبة؟ وما أن خرجت كلمة التوبة من فم راضي حتى أخذ صوت الشيخ عبد التواب يرن في أذنه، ووجهه المبتسم يظهر أمامه، وهو يقول له العبارة نفسها التي قالها لعمه اليوم، فقد قال له: فهل من توبة يا ولدي يا راضي؟ ثم أخذ يتذكر الشيخ عبد التواب وهو يقول: ياراضي هي فعلٌ له سمات رئيسة وهي:

ت: وكأنها رمز لتوفيق الله وإن عدم (التوفيق من الله) لا تكون توبة.

و: وكأنها رمز لوعد الله لمن أسعده، ووفقه بالأوبة إليه أي الرجوع، فتكون التوبة من خلال (وعد) من الكريم المتعال لعبده الذي وفقه للأوبة، فكان (وعد) من العبد بالإقلاع عن الذنب.

ب: وكأنها رمز (بعد) العبد عن كل أمرٍ نهى الله ورسوله عنه. ولا تتم التوبة إلا من خلال وعد الإقلاع عن الذنب والبعد عن ما يغضب الرب، فيكون الإقلاع نتيجة ندم الذي وفق الله الفرد له.

هـ: وكأنها رمز الختام وهو الكرم من صاحب العطايا والإكرام، وذلك بأن تكون (هداية) تجعل الفرد يترك الذنب القبيح، ويندم على ما فرط منه،

Marfat.com

ويقوده إلى العزيمة على ترك المعاودة، ويوفقه إلى تدارك ما أمكن أن يتدارك من الأعمال.

وبذلك تكون التوبة هي فعل يقوم به الفرد بتوفيق من الرب، مصحوباً بعزم على عدم العودة للذنب، وذلك بالبعد عن كل ما نهى الله ورسوله عنه والإقلاع عن كل ما يغضب الرب، وهي لا تتم إلا بهداية من الله، تجعل الفرد يترك الذنب، ويعزم على ترك العودة إليه. ياراضي اعلم أن (التائب أعتق رقبته من أسر الهوى، وأطلق قلبه من سجن المعصية وفك روحه من شباك الجريمة وأخرج نفسه من كير الخطيئة) (الحازمي، ١٤١٤هـ: ٥-٦).

لذلك ياراضي هناك محرمات يجب أن يتوب العبد عنها، وهي: الكفر، والشرك والنفاق والفسوق والعصيان والفحشاء والإثم والعدوان، فيتوب الفرد عن كل منكر وبغي والقول على الله بغير علم (الحازمي، ١٤١٤هـ: ٦-٧).

ثم أخذ يتذكر قول الشيخ عبد التواب: رحم الله طلق بن حبيب، فقد قال: إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين (الحازمي، ١٤١٤هـ: ١١).

Marfat.com

وكذلك قول الرجل الذي سأل سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: عن ذنب ألمَّ به هل له من توبة؟ فأعرض عنه، ثم ألتفت إليه، فرأى عينيه تذرفان، فقال له: إن للجنة ثمانية أبواب، كلها تفتح وتغلق، إلا باب التوبة فإن عليها ملكاً موكلاً به لا يغلق، فاعمل ولا تيأس (السيد، ١٤٠٦هـ: ١٤).

أخذت الدموع تنساب من عيني (راضي)، وأخذ يقول ويردد: يا رب اهدي عمي، يا رب إهدي عمي، يا رب إهدي عمي، ثم أخذ يحتضن عمه، ويكتب له: لا تيأس يا عم، وتب إلى الله، وعُدْ إلى الله فكرم الله كبير ورحمته واسعة، فلا تقنط ولا تيأس يا عم، فهل من توبة ياعم وترك للذنب؟ أخذت دموع العم تنساب من عينيه، واحتضن (راضي)! وأخذ يبكي بحرقة! ثم أصدر فجأة صوتا شديدا ورفع سبابته بكلمة التوحيد، وسلم روحه لخالقه، وأخذ (راضي) في البكاء الشديد! وأقبل الطبيب وأخذ يحاول أن يقدم أي مساعدة لكن لكل أجل كتاب، ولكل مخلوق وقت معلوم ولا يدوم إلا الواحد الأحد الفرد الصمد. وفي هذا الوقت أخذ الشرطي الأوراق، وانطلق براضي إلى الطبيب وأخذ راضي يقرأ ما كتبه من قول القائل:

Marfat.com

رَبِّيْ إِنِّيْ لِلْفَضْلِ طَالَ انْتِظَارِيْ ... يَا عَلِيْمًا بِذِلَّتِيْ وَأَنْكِسَارِيْ
قُمْتُ بِالْبَابِ أَرتَجِي مِنْكَ عَطْفًا ... يَا خَبِيْرًا بِفَاقَتِيْ وَاضْطِرَارِيْ
طَالَ مُكْثِي فِيْ سِجْنِ بَلْوَاكَ فَادْرِكْ ... بِغِيَاثِيْ مِنْ قَبْلِ يَفْنَى اصْطِبَارِيْ
وَعلَى فَضْلِكَ الْجَزِيْلِ اعْتِمَادِيْ ... وإِلَى بَابِكَ الْمَنِيْعِ اضْطِرَارِيْ
إِنَّ ضَعْفِيْ مَا قَطُّ يَخْفَاكَ يَا مَنْ ... فَضْلُهُ فِيْ الْوُجُودِ وَالْكَوْنِ سَارِيْ
أَنَا عَبْدٌ مِنْ شَأْنِيْ النَّقْصُ لَكِنْ ... لَيْسَ لِيْ طَاقَةٌ عَلَى الاخْتِبَار
رَبِّ فَانْظُرْ إِلَيَّ نَظْرَةَ وُدٍّ ... وَاغْنِنِي بِالْغِنَا وَقَرِّبْ مَزَارِيْ
إِنَّنِيْ بِالفِنَا طَرَحْتُ قِيَادِيْ ... وَمُرَادِيْ وَحَاجَتِيْ وَاخْتِيَارِيْ
وَعَلَى فَضْلِكَ الْمُعَوَّلُ فَابْسُطْ ... ذَيْلَ سَتْرٍ عَلَى قَبِيْحِ عِثَارِيْ
إِنَّ لِيْ فِي نَدَاكَ ظَنًّا جَمِيْلاً ... فَأَغِثْنِيْ وَاصْلِحْ جَمِيْعَ عَوَارِيْ
رَبِّ إِنِّي لِلْفَضْلِ وَاللُّطْفِ أَرْجُو ... فَافْتَقِدْ مهْجَتِيْ وَأَحْسِنْ جِوَارِيْ
لَيْسَ لِيْ فِيْ سِوَاكَ يَا رَبِّ قَصْدُ ... يَا غِيَاثِيْ فِيْ يُسْرَتِيْ وَعَسَارِيْ

فماذا حدث لراضي؟ وكيف كانت حياته بعد الخروج من السجن؟ وما هي الصعاب التي واجهته؟ وكيف كان الصبر نِعْمَ الدواء؟ هذا ما سوف يعرفه القارئ الكريم إن كان في العمر بقية، وقدر لنا اللقاء مع حوار جديد يتعرف من خلاله عن مفهوم الصبر، وكيف كان سبباً في فتح أمل جديد، وحياة سعيدة لساخط الأمس وراضي اليوم.

Marfat.com

الـــــهوامش

١. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: التحفة العراقية في أعمال القلوب، دار الهدى للنشـر والتوزيـع، الرياض، ١٤٠٧هـ.

٢. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: التوبة والاستغفار، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٤هـ.

٣. ابن القيم، محمد بن أبي بكر: الفوائد، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٣هـ.

٤. ابن القيم، محمد بن أبي بكر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٨١هـ.

٥. ابن القيم، محمد بن أبي بكر: عدة الصابرين وذخـيرة الشـاكرين، دار الكتـب العلميـة، بـيروت، د.ت.

٦. ابن القيم، محمد بن أبي بكر: كتاب التوبة، مكتبة السنة، القاهرة ١٤١٠هـ.

٧. ابن القيم، محمد بن أبي بكر: مدارج السالكين، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٢هـ.

٨. أبو سليمان، عبد الوهاب: المنهج الإسلامي في مكافحة الجريمـة، جريـدة عكـاظ، العـدد ١٢٦٧٩ جده، الاثنين ٢٠ صفر ١٤٢٢هـ.

٩. الأحسائي، أبي بكر محمد الملا: قرة العيون المبصرة، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، ١٣٨١هـ.

١٠. الألباني، محمد ناصر الدين: صحيـح سـنن ابـن ماجـة، مكتبـة التربيـة العربـي لـدول الخليـج، الرياض، ١٩٨٨م.

١١. الأموي، عماد الدين: حياة القلـوب في كيفيـة الوصـول إلى المحبـوب، هـامش الجـزء الثـاني مـن كتاب: قوت القلوب في معاملة المحبوب، لأبي طالب محمد بن أبي الحسن علي بن عباس المكي، دار الفكر، بيروت، د.ت.

١٢. جفال، علي داود محمد: التوبة واثرها في إسقاط الحدود في الفقه الإسلامي، دار النهضة العربيـة، بيروت، ١٤٠٩هـ.

١٣. الجيلاني، عبد القادر: الفتح الرباني والفيض الرحماني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ.

١٤. الحازمي، إبراهيم بن عبد الله: التائبون إلى الله، جزء ١، دار الشريف للنشر والتوزيع، الريـاض، ١٤١٤هـ.

Marfat.com

١٥. الحازمي، إبراهيم بن عبد الله: التائبون إلى الله، جزء ٣، دار الشريف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٩هـ.

١٦. الحراني، أحمد بن عبد الحليم: شرح فتوح الغيب للإمام الرباني عبد القادر الجيلاني، دار القادري، دمشق، بيروت، ١٤١٥هـ.

١٧. حوى، سعيد: المستخلص في تزكية الأنفس، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٠٣هـ.

١٨. خليل، رحمة الله عبد الغني إبراهيم: الموعظة الحسنة، مكتبة دار الإيمان، المدينة المنورة، ١٤٢٠هـ.

١٩. الذهبي، الإمام الحافظ شمس الدين: كتاب الكبائر، المكتبة الثقافي، بيروت، د.ت.

٢٠. الرازي، الإمام زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر: حدائق الحقائق، كويك حمادة الجريسي للطباعة والكمبيوتر والتصوير، ١٤١٢هـ.

٢١. الزغيبي، محمد علي: هل نحن مسيرون أم مخيرون، مؤسسة الزغبي لتأليف، مطبعة الإنصاف، بيروت، ١٩٦٨م.

٢٢. السيد، مجدي بن فتحي: التوبة النصوح، مكتبة الصحابة، طنطا، ١٤٠٦هـ.

٢٣. الشرباصي، أحمد: موسوعة له الأسماء الحسنى، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٢هـ.

٢٤. الصفوري الشافعي، عبد الرحمن بن عبد السلام: نزهة المجالس، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٨هـ.

٢٥. طبارة، عفيف عبد الفتاح: الخطايا في نظر الإسلام، دار العلم للملايين، ط٦، بيروت، ١٩٨٢م.

٢٦. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٢٧. عوامة، محمد: من صحاح الأحاديث القدسية، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، ١٤١٣هـ.

٢٨. الغزالي، حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد: إحياء علوم الدين، الجزء ١١، ١٢ المجلد ٤، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٥هـ.

٢٩. الغزالي، حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد: كتاب التوبة إلى الله ومكفرات الذنوب، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع القاهرة، ١٤٠٦هـ.

٣٠. الغزالي، حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد: التوبة، تهذيب وتعليق، زهير شفيق الكبي، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩١م.

Marfat.com

٣١. الغزالي، حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد: مختصر إحياء علوم الدين، دار الفكر مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٦هـ

٣٢. الغزالي، حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد: منهاج العابدين إلى الجنة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٩هـ.

٣٣. الغزالي، حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد: مكاشفة القلوب، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٣٤. قطب، سيد: في ظلال القرآن: جزء ٦، دار الشروق، بيروت، ١٤١٢هـ.

٣٥. الكيلاني، ماجد عرسان: فلسفة التربية الإسلامية، مكتبة المنارة، مكة المكرمة، ١٤٠٧هـ

٣٦. المحاسبي، الحارث بن أسد: الوصايا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ.

٣٧. المحاسبي، الحارث بن أسد: التوبة، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٧م.

٣٨. المروزي، عبد الله بن المبارك: كتاب الزهد والرقائق، مجلس أحياء المعارف الهند، ١٣٨٥هـ.

٣٩. المعيري، زين الدين علي: سراج القلوب وعلاج الذنوب، هامش الجزء الأول من كتاب: قوت القلوب في معاملة المحبوب، لأبي طالب محمد بن أبي الحسن علي بن عباس المكي، دار الفكر، بيروت، د.ت.

٤٠. المقدسي، موفق الدين أبي محمد عبد الله بن محمد بن قدامة: كتاب التوابين، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ.

٤١. وانلي، خير الدين: دليل الخيرات وسبيل الجنات، مكتبة السوادي للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٠هـ.

٤٢. يعقوب، محمد بن حسين: كيف أتوب، مكتبة الصحابة، الشارقة، ١٤٢٠هـ.

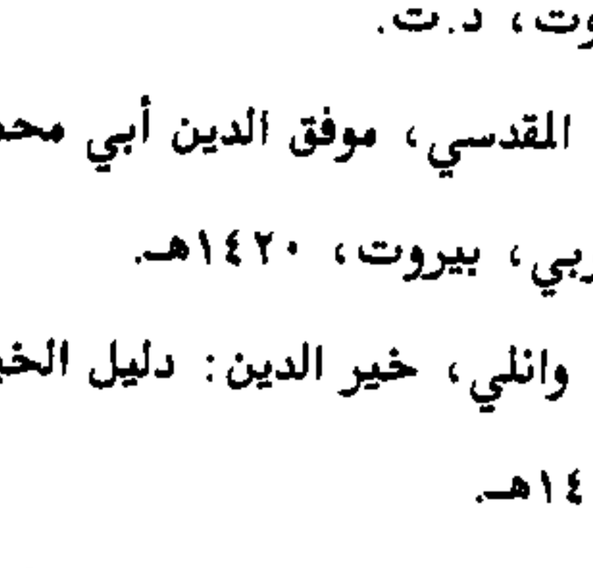

Marfat.com

Marfat.com

بقلم
الدكتور: رضوان فضل الرحمن الشيخ

ردمك: × ٨ ٩٣٦١ ٩٩٦٠

Marfat.com